روايات عبير

٤

أسيرة الصحراء



٤

من أنت ؟ وماذا تريد مني ؟

● على بعد أمتار من "صوفيا"، يجلس رجل يحدق في منظر الرمال والصخور الضخمة من حوله.

وينظر أيضاً إليها بعينيه الزرقاوين - عاقداً يديه . وفجأة تذكرت الفتاة : رحلتها المخيفة على ظهر الجمل عبر الصحراء .. والنور الساطع .. والحمى ..

● لماذا تركها هؤلاء المرشدون بين يدي هذا الرجل ؟

No. 111-00

من أنت ؟ وماذا تريد مني ؟"

على بعد أمتار من "صوفيا" ، – يجلس رجل يحدق في منظر الرمال والصخور الضخمة من حوله .
وينظر أيضاً إليها بعينيه الزرقاوين – عاقدا يديه ، وفجأة تذكرت الفتاة : رحلتها المخيفة على ظهر الجمل عبر الصحراء ... والنور الساطع ... والحمى...
لماذا تركها هؤلاء المرشدون بين يدي هذا الرجل ؟

تقديم

" فتحت "صوفيا" عينيها في رعب ، وكان منظر الصحراء أمامها كما اعتادته برماله الناصعة ، وصخوره القوية ، وأعشابه النادرة ، ونباتاته الشائكة القصيرة .
نعم .. مازالت كما هي في قلب الصحراء ..
ولكن لايوجد حولها أي شيء .. لاجمال .. ولاحركة .. ودائما الفراغ .
بحثت "صوفيا" بعينيها الخائفتين عن أي شيء حولها بيأس شديد .. وأخيرا رأته هو .."

* * *

تجري أحداث هذه القصة في الصحراء ، كل يبحث عن شيء ما ، ويتقابل الاثنان "صوفيا" و"كارل" .. ويواصلان الطريق معا .. ولكن هل يتسلل الحبّ إلى قلبيهما ؟ ، وكيف الخلاص ؟
هذا ماستراه – عزيزي القارئ – في هذه القصة الشيقة التي تنقلنا معها إلى عالم الصحراء الشاسعة ..

عبير محمد عمر سعد

شخصيات الرواية

(صوفيا كارلتون) : فتاة رائعة الجمال ذات شعر براق يشد الانتباه، تنحدر من عائلة أرستقراطية، تقرر في أحد الأيام الاستقلال عن هذه العائلة، فتبدأ مغامرة عبر الصحراء للحاق بخطيبها .

(كارل كينجسلي) : رجل غامض يجوب الصحراء بدون هدف محدد ولسبب مجهول .

(ديفيد ستاتون) : رجل مثالي، يتولى تعليم سكان بعض مناطق الصحراء اللغة الإنجليزية والثقافات المختلفة .

الفصل الأول

لم تصل "صوفيا" طوال عمرها إلى هذه الدرجة من المرض ، فقد كان الألم يعتصر جسدها الذي يرتعش بشدة من الحمى، كما كانت تشعر بألم شديد في رأسها يجعلها ترغب في البكاء ألما وحزنا .

أين هي الآن ؟ لقد انتهت أخيراً جولتها القاسية وهي قابعة فوق ظهر الجمل.

وهاهي الآن فوق الرمال، مغطاة بطبقة سميكة من الأغطية، وكم كانت الليالي شديدة البرودة في هذه الصحراء.

وكانت "صوفيا" تنكمش مرتعشة على الرغم من سخونة جسدها. واختلطت الساعات الماضية في ذاكرتها، فقد ظلت الفتاة مسافرة لمدة أيام طويلة مع هذه المجموعة من حداة الإبل حتى أصابتها هذه الحمى، وعندئذ ارتسم الرعب على وجوه هؤلاء الرفاق أمام أعراض المرض، فقاموا بتدثيرها في هذه الأغطية وتوجهوا بها مضطرين نحو هذه الوجهة غير المعروفة .

وقد فقدت "صوفيا" – على ظهر الجمل – الإحساس بالوقت – فإلى أين يذهبون؟ وكم من مرة، حاولت توجيه هذا السؤال لحداة الإبل ولكن مبادئ اللغة العربية لديها لم تسمح لها بفهمهم .. وعلى كل حال، لم ينصت لها هؤلاء الرجال، وكانوا يسرعون في اتجاه هدف محدد – فما هذا الهدف ؟

وفقدت الفتاة الصغيرة الأمل في أن تسمع الإجابة عن هذا السؤال، وغابت في إغماءة .

* * *

والآن، توشك هذه الفتاة على فهم الأمر، وبدأت تسمع بعض الأصوات على الرغم من ضربات قلبها السريعة .

– السلام عليكم .

كان هذا صوت "عثمان" – أكبر الحداة سناً – وكانت هذه هي صيغة السلام المعتادة لدى العرب والتي سمعتها "صوفيا" كثيراً منذ وصولها إلى الصحراء .

وأجابه صوت آخر غير معروف :

– عليكم السلام .

ثم تلا ذلك جمل طويلة باللغة العربية لم تستطع "صوفيا" فهم كلمة واحدة منها، ثم نهضت "صوفيا" لترى أين هي الآن ولكن دون جدوى. فبمجرد أن فتحت عينيها رأت هالات كبيرة ذات لون ساطع تضيء أمام عينيها، وهكذا كانت "صوفيا" تفضل أن تغمض عينيها .

وأحست الفتاة بالرعب يستولي عليها، ترى من هذا الرجل الغريب الذي يتحدث إليه "عثمان" ؟

فهي تسمع منذ القدم عن تجارة الرقيق الأبيض، وقد ظلت هذه الفكرة تسيطر على عقلها طويلا، وشعرت فجأة برعشة شديدة تسري في جسدها .

ترى هل يتولى "عثمان" بيعها الآن ؟

ورددت "صوفيا" لنفسها: ياله من غباء . فهذه الأشياء أصبحت غير واردة الآن في هذا العصر بالتأكيد ، وعلى الرغم من ذلك، ظلت "صوفيا" ترتعش ولم تعد تفكر الآن إلا في شيء واحد فقط: الهرب .

ولكن كيف .. وكم تشعر الآن بالألم .

وبعد مجهود عنيف، نجحت "صوفيا" في رفع رأسها، وأحست بأن هناك أفكاراً سوداء تمر برأسها، وأخيراً خفتت هذه الأصوات حتى تلاشت تماما. ولم تشعر الآن إلا بالحمى والألم والظلام .

* * *

ثم أصيبت الفتاة بإغماءة طويلة في تلك الليلة التي تلألأت النجوم في سمائها .

وبعد فترة طويلة من فقدان الوعي، استغرقت "صوفيا" في نوم عميق .

وعندما استيقظت، لم تفتح عينيها، والحقيقة أنها كانت تشعر بعدم القدرة على فتحهما، فقد كانت جفونها ثقيلة جداً .. ورأسها! كان الألم يعتصر رأسها...

ياله من ألم قاتل ... والآن تشعر "صوفيا" برغبة شديدة في النوم ... ومزيد من النوم ..

وفجأة، شدها شيء من خمولها، وكان الهدوء يشمل المكان كله .

ولم يعد هناك صوت للجمال أو صوت لرجال يتحدثون باللغة العربية، لم يعد هناك أية استفسارات أو ضوضاء .

عدم وجود ضوضاء في قافلة مملوءة بالنشاط؟

يا إلهي، لقد تركها العرب وحيدة في مكان ما في العالم .

وفتحت "صوفيا" عينيها في رعب، وكان منظر الصحراء أمامها كما اعتادته برماله الناصعة وصخوره القوية، وأعشابه النادرة ونباتاته الشائكة القصيرة نعم، مازالت كما هي في قلب الصحراء .

ولكن لا يوجد حولها أي شيء .. لا جمال .. ولا حركة، ولكن الفراغ فقط .

وبحثت "صوفيا" بعينيها الخائفتين عن أي شيء موجود حولها بيأس شديد، وأخيراً رأته هو .

كان يجلس على بعد عدة أمتار، ينظر إلى الأفق، مما سنح للفتاة فرصة النظر إليه دون أن يراها .

* * *

وكان يرتدي الملابس البدوية .. القميص العربي الطويل المصنوع من التيل الأبيض الخشن. والسروال المصنوع من نفس القماش .

وعلى الرغم من أنه لم يكن يضع على رأسه العقال التقليدي، إلا أن شعره الأسود ولونه البرونزي و ملامحه العربية، كل ذلك كان يشير إلى أنه من الجنس العربي.

* * *

وسرت الرعشة في جسد "صوفيا". وفجأة عادت جميع ذكريات الليلة الماضية إلى ذاكرتها : هذه الجولة القاسية عبر الصحراء .. والصوت الغريب الذي كان يتحدث إلى "عثمان" ...

هل هذا الغريب هو الرجل الجالس أمامها الآن؟ ترى ما الذي ينوي عمله تجاهها الآن؟ وأهم شيء: من هذا الرجل؟ قاطع طريق؟ قد يكون عضواً في هذه العصابة التي كانت تصطحبها، ولكنها لم تلحظه، لقد ألقت بنفسها في هذه المغامرة بحماس لا حدود له. وهاهي المغامرة تتحول إلى كابوس .

* * *

تملك الخوف من الفتاة، حتى أنها عجزت تماما عن الحركة، وعلى الرغم من ذلك، قام شيء ما بتنبيه الرجل إلى أن الفتاة استيقظت، فاستدار فجأة نحوها، وصدمت الفتاة بنظرته إليها .. نظرة من عينين زرقاوين فيهما بريق رائع .. ذلك اللون الأزرق الذي كانت والدتها تراه في نبات الجنتيانا الذي تقوم بزرعه لقد كانت عينا هذا الرجل رائعتين للغاية .. من أجمل العيون التي رأتها "صوفيا" طوال عمرها .

* * *

– آه، لقد استيقظت .

كان صوته بارداً ويدل على اللهجة الإنجليزية ، وتنفست "صوفيا" الصعداء وقالت:

– أوه! كدت أموت من الخوف ! لقد ظننتك قاطع طريق !

ولم يبتسم الرجل لسماعها ولم يجب أيضاً .

وظلت نظرته ساهمة، وعلى الرغم من ذلك استمرت "صوفيا" في حديثها مبتسمة:

– إنني سعيدة الحظ ! فقد تكون الشخص الوحيد الذي يتمتع بالجنسية الإنجليزية في هذه المنطقة الشاسعة، ولقد تقابلت معك!

إنه رضا من الإله، أليس كذلك ؟

– أنا لا أعرف شيئا مما تقولينه، والحقيقة أن وجودك هنا لا يدل على وجود معجزة، فإنه يتم إخبار عرب الصحراء بمجرد مرور "أي أجنبي" أو غريب بأراضيهم، ولقد اطمأن هؤلاء الحداة لتركك بين يدي رجل من بلادك .

وقد دفع هذا الصوت الجاف والنظرة التي يشوبها الاحتقار بـ"صوفيا" إلى التساؤل:

قد يكون وجودها غير مرغوب فيه هنا ؟

ولم يدم هذا السؤال مسيطراً عليها طويلا، فقد كانت "صوفيا" تنجح دائما في طرد الأفكار السيئة من رأسها، ورمت "صوفيا" هذا الغريب بابتسامة ساحرة،

تلك التي كانت تذيب الرجال شوقا إليها حتى هؤلاء الذين يفتقدون الإحساس الرقيق.

فقد اكتشفت منذ صغرها أن الجمال المادي قادر على حل جميع المشاكل وكانت "صوفيا" متأكدة من جمالها وفتنتها .

ولقد خمنت في هذه اللحظة أن الحياة في هذه الصحراء قاسية جداً وأن الحمى أيضا لم تتركها جميلة الهيئة كما هي .

وبعد أن ظلت "صوفيا" تفكر في الخطة التي ستقوم بها تجاه هذا الغريب، رفعت عينيها نحو وجهه الخالي من أي تعبير، فرأت رموشه الطويلة وركزت نظرها في عينيه قليلاً .

ولم تؤثر نظراتها فيه، ولم يظهر لديه أي رد فعل، واقتنعت أخيراً أن هؤلاء الحداة تخلصوا منها وأن عليها الآن البحث عن دليل آخر يصحبها نحو هدفها .

والحق أن هذا الغريب الذي يسافر عبر الصحراء مناسب جداً لهذه المهمة، بالإضافة إلى أنه يتحدث العربية، مما يجعله دليلاً نموذجياً، المشكلة أنه لا يظهر أي رغبة في مساعدتها .

ولكنها لن تيئس أمام أول عقبة تواجهها، هذا ما قررته "صوفيا" في نوبة من التفاؤل

وقد اعتادت في الحقيقة ألا تجد أي مقاومة من رجل، وعلى الرغم من أن هذا الرجل يبدو متجلدا، إلا أنها ستضطره للإذعان لها، ولا ينقصها سوى قليل من الدبلوماسية .

ثم قالت الفتاة بابتسامتها الساحرة :

– أعتقد أنه آن الأوان لنتعارف ياسيدي .

– لافائدة من ذلك، لقد بحثت في أمتعتك هذه الليلة ووجدت جواز سفرك، وأعرف الآن من أنت بالتحديد .. السيدة "صوفيا كارلتون" .

وسألته "صوفيا" فجأة بينما تهم بالجلوس :

– لقد فتشت في أمتعتي إذن ؟

ثم شعرت بالألم يجتاحها، فأمسكت برأسها بين يديها، وصاحت :

– آه ! أشعر بألم رهيب !

– استرخي قليلا ولا داعي لاضطرابك دون سبب .

وأطاعته "صوفيا"، بينما كان الرجل يرمقها بنظرة قاسية، ثم قالت :

- كيف، دون سبب؟ فكيف سيكون تصرفك إذا علمت أن شخصاً ما يفتش في حاجياتك أثناء نومك؟ واكتفى الرجل برفع كتفيه، ثم قال:

- كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة شخصيتك، أليس كذلك؟ لقد وقعت بين يدي فجأة، ولك أن تتخيلي ذلك .

- أتصدقني ؟ أنني دفعت لهؤلاء الحداة حتى يصطحبوني إلى "حجار" وعندئذ أصابتني الحمى، فخافوا من أعراض هذا المرض، وأعتقد أنهم خشوا تفاقم حالتي .

- الحقيقة أنهم خشوا أن ينتقل المرض إلى جموعهم، ولم يستطيعوا الانتظار حتى يتم شفاؤك، فقد كانت الجمال بحاجة إلى المياه والآبار القريبة منهم تبعد عن هنا كثيراً .

- يبدو أنك متعاطف مع هؤلاء الحداة أكثر من تعاطفك معي ؟

- ولم لا؟ إن حياة هؤلاء الناس قاسية جداً. ولأي سبب يحملون أنفسهم عبء فتاة مدللة من المجتمع الراقي تهوى القيام برحلات غريبة في الصحراء؟ "كيف تواجه السيدة "صوفيا كارلتون" مخاطر الصحراء بصحبة هذه المجموعة من الوطنيين بجرأة متناهية وشجاعة لا مثيل لها".

ياله من موضوع رائع يصلح للمناقشة في الصالونات، أليس كذلك؟ ذلك دون أن نأخذ في الاعتبار سلسلة كاملة من القصص التي ستدهشين بها أصدقائك في الأمسيات الرائعة لدى عودتك لبلادك ياسيدة "كارلتون"!

ضايقتها هذه السخرية التي كانت تسيطر على كلامه، ولكنها تماسكت بسرعة وقالت له :

- إذن أنت تعرف من أنا ياسيدي، ومن الأدب الآن أن تقدم لي نفسك ؟

فرماها بسلام مقتضب وقال:

- "كارل كينجسلي" .. اسم لا يدل على أن صاحبه من النبلاء، وعلى كل حال، أنا أرى أن الألقاب يجب أن تكون جديرة بذكرها بدلا من توارثها .

وسيطرت "صوفيا" على مشاعرها، وحقيقة الأمر أن هذا الرجل كان قادراً على إثارة غضبها، ولكنها تمالكت نفسها، وأجابته بأسلوب راق :

- حسناً ياسيد "كينجسلي" .. فأنا لديّ وظيفة أتمنى أن تشغلها .

فنظر إليها "كارل كينجسلي" بسرعة :

- إنني أتحرق شوقاً لسماعك، فلم أنل أبداً شرف تلقي مثل هذا العرض من سيدة راقية .

لقد تجاوز حدوده جداً ! ونظرت إليه "صوفيا" بحقد شديد .

- بعد اجتياز هذه الكيلومترات الطويلة وحيدة في الصحراء، ثم مقابلة شخص كريه مثلك، لامثيل لسوء خلقه، فهو إذن حظ رائع !

فهل تستطيع أن تضغط على نفسك أكثر من اللازم حتى تبدو شخصا اجتماعيا بعض الشيء ياسيد "كينجسلي" ؟ ذلك لأنه من المؤكد أننا سنضطر لقضاء بعض الوقت معا .

- آه ! لا يمكن ذلك .

وسيطر الضيق على "صوفيا"، فهل ينوي هذا الرجل أن يتركها هنا وحيدة في قلب الصحراء؟ إن ذلك يعني القضاء عليها بالتأكيد .. وأحست فجأة بأنها مجردة ويائسة للغاية .. واغرورقت عيناها بالدموع .. فياله من ذل رهيب تشعر به أمام هذا الغريب المتحجر والواثق من نفسه إلى درجة كبيرة جداً !

- ولكنك .. أتريد أن تقول إن ..

وكفت "صوفيا" عن الكلام خوفا من أن يظهر صوتها هذا الشعور الذي يسيطر عليها، فمن غير الضروري أن يعرف "كارل كينجسلي" إلى أي مدى تشعر بضعفها لأنه قد يحاول استغلال هذا الموقف دون أدنى شك .

فلا يبدو أنه شخص طيب أو مريح، وعلى الرغم من جمال عينيه الرائعتين ونظرتهما البراقة، إلا أنهما كانتا باردتين وبدون روح .

ولكنها - مع ذلك - مضطرة لطرح هذا السؤال عليه، فحياتها متوقفة عليه، واستجمعت "صوفيا" قوتها وسألته بصوت مختنق :

- أنت ... أنت لا تستطيع أن تتركني هنا وحيدة، أليس كذلك؟

وانتظرت "صوفيا" الإجابة عن هذا السؤال بعد عدة ثوان طوال .

– لا .. لا بالتأكيد، لا أستطيع أن ...

وتنفست "صوفيا" الصعداء، وسألته آملة :

– إذن، أنت تنوي أن تصطحبني معك .

فرفع الغريب حاجبيه وتنهد قائلا :

– لقد وعدت هؤلاء الحداة أن أصحبك إلى "عمرة" وهي قرية تقع على بعد عدة كيلو مترات من هنا ناحية الشمال، ولكنها ليست بعيدة بالتأكيد ، وبعد ذلك ستتولين مسؤولية نفسك بنفسك .

– ولكن، أنا أرفض الذهاب إلى "عمرة" !

– لم أترك لك الخيار .

– ولكنك لم تستمع إلى اقتراحي! فأنا احتاج إلى دليل يصطحبني إلى "حجار" ولن أستطيع أن أذهب هناك وحدي، فقد أضل الطريق، وقد تمضي الأيام والأسابيع دون أن أجد أي شخص يسافر نحو هذه الوجهة .

اسمع ياسيد "كينجسلي"، لو اصطحبتني حتى هذا المكان، سأدفع لك ما تريده فالمال لا يشكل بالنسبة لي أي مشكلة ! ...

وفجأة اكفهر وجهها :

– ذلك إذا لم يكن الحداة قد استولوا على ...

– اطمئني من هذه الناحية، فأنت محظوظة، هؤلاء الرجال من الشرفاء، وهذا لن يغير شيئاً من الوضع، سأصحبك حتى "عمرة"، وفقط حتى "عمرة" .

وعندما تصلين هناك، إذا تبقى لك عقل للتفكير، فسوف تستطيعين التصرف للوصول إلى "إنجلترا" في أسرع وقت ممكن .. و"حجار" ما هي إلا قرية صغيرة لا أهمية لأي شيء فيها .. ولاشك أن هؤلاء السكان سيتشرفون بزيارة السيدة "صوفيا كارلتون" .

– إنك تسعد بهذه السخرية، أليس كذلك ؟

وعلى كل حال، بمساعدتك أو دونها؛ سأصل إلى "حجار" .

– أعتقد أنك ستصلين بهذه المعارضة الدائمة، أليس كذلك ؟

– كلا بالتأكيد ولكن خطيبي "ديفيد ستاتون" سيكون هناك، وعندما أصل عنده، سنتزوج .

واضطر هذا الاعتراف "كارل كينجسلي" إلى الصمت، مما جعل "صوفيا" تشعر بشيء من الراحة والطمأنينة. ونظر إليها "كارل" بعينيه الزرقاوين باهتمام وقال: –

ولكنك لا تضعين خاتم الخطوبة في يدك .

– لا أهمية لذلك ياسيدي مادام هناك حب .

وعلى الرغم من أنها كانت تتحدث بثقة شديدة، إلا أنها كانت تتمنى أن يكف عن توجيه الأسئلة إليها، فقد كانت تكره مجرد ذكر شخصية خطيبها أمام "كارل كينجسلي" .

فكيف يفهم هذا الأخير ويقدر قيمة "ديفيد" ولطفه، من المؤكد أنه سيحتقر حياتهما .. أما بالنسبة لخاتم الخطوبة .. فقد كان "ديفيد" ينوي بالضرورة تقديمه لها، ولكن كل شيء تم بسرعة! تناولا العشاء سويا على ضوء الشموع وتجانب ارتياد المسارح والرقة الشديدة في قبلاته .. ثلاثة أسابيع من السعادة. ثلاثة أسابيع .. إنها مدة قصيرة جداً .. ولكنها حافلة جداً .. فقد جلست لساعات طوال تستمع لـ"ديفيد" وهو يتحدث عن حياته كمعلم لسكان الصحراء.

كانت حياته تختلف تماما عن حياتها المملوءة بالمباهج عديمة القيمة .. لقد أصبحت "صوفيا" تخجل من هذه الحياة التافهة .

* * *

وفي أحد الأيام، عندما خرج الاثنان معا من أحد المطاعم، كان المطر يهطل بشدة وقد فوجئا بهذا الجو، واضطر الاثنان للاحتماء بمعطف المطر الخاص بـ"ديفيد"، وتلاقت شفتاهما في هذه اللحظة في قبلة خجول ..

ثم نظر "ديفيد" إلى "صوفيا" نظرة يختلط فيها الخوف بالرغبة .

– إنك رائعة الجمال يا"صوفيا" .. لم أكن أتخيل حياتي دونك .. فأنا لست غنيا، وليس لدي ما يمكنني أن أقدمه لك، ولكنني أحبك يا"صوفيا"، فهل تقبلين الزواج مني ؟

كانت "صوفيا" معجبة به إلى أقصى درجة، ولقد أيقظت فيها هذه القبلة رغبة جامحة، وشعرت في هذه اللحظة أنها تود أن تتبعه حتى آخر الدنيا ثم همست قائلة :

- نعم يا "ديفيد" ... أريد أن أتزوجك .

وباحترام شديد، وضع "ديفيد" شفتيه ثانية على شفتي "صوفيا"، ثم قال لها :

- أتعهد يا "صوفيا" بأن أجعلك سعيدة قدر استطاعتي .

ودفنت "صوفيا" الفتاة الصغيرة وجهها في صدره، فإن رغبة "ديفيد" في الزواج منها كفيلة بأن تجعلها شاكرة لجميله هذا .

وفي الأيام التالية، كانت تخرج دائما بصحبته مشبكي الأيدي مثل الأطفال، وفي المساء كانا يودعان بعضهما بقبلة بريئة .. وكم كان الوقت يمر سريعا .. سريعا جداً، حتى انتهت إجازة "ديفيد" التي امتدت لثلاثة أسابيع، وأصبح من الضروري أن يغادر "إنجلترا" ويعود إلى مدرسته في قلب الصحراء في إحدى القرى الصغيرة التي تسمى "حجار" .

ولم يكن أحد منهما يريد أن يفارق الآخر، ولكن ضمير "ديفيد" الحي لم يمنعه من العودة إلى هؤلاء الناس حتى ولوكان حب "صوفيا" السبب في ذلك .

وحاولت هذه الأخيرة جاهدة إخفاء حزنها عن "ديفيد"، وتمنت أكثر من مرة أن ترجوه كي يبقى بجانبها، ولكنها تماسكت، وكان في فكرة انتهاء عقد "ديفيد" خلال عام سلوى لها بعض الشيء، وستمر الشهور سريعا وسيعود "ديفيد" إلى "انجلترا" ليتزوجا، ورحل "ديفيد" بعد أن اتخذا هذا القرار سويا .

* * *

وفي صباح أحد الأيام، استيقظت "صوفيا" بينما تسيطر على رأسها فكرة ملحة: لماذا تنتظره؟ ولماذا لا تلحق به هناك؟ وكم سيسعدهما هذا اللقاء .. ثم، لقد شكى لها "ديفيد" أكثر من مرة عدم وجود شخص يساعده في عمله .

وبهذه الطريقة، يمكنها إذن مساعدته، فيعملان معا وجنبا إلى جنب .

وشعرت "صوفيا" بالسعادة لهذه الفكرة وقررت أن تصبح - لأول مرة في حياتها - إنسانة مفيدة .

ولتذهب إلى الجحيم هذه الأيام الخالية المملوءة بالسعادة الشخصية فقط .. أخيراً شعرت بأهمية وجودها .

ولم تكن الرحلة إلى هذه المنطقة سهلة، فقد كان ذلك يتطلب منها تأشيرة سفر وقراءة عميقة للكتب التي تتحدث عن الصحراء، وقد فعلت كل هذا سراً .

وعلى الرغم من حبها لأسرتها، إلا أنها كانت تفضل تكتم هذا الأمر تحاشياً للخوف الذي سيستولي عليهم، فمجرد فكرة سفر ابنتهم وحيدة عبر الصحراء كفيلة بأن تبث الرعب في قلوبهم .

وقد قررت أيضاً أن تبقى لدى ابنة عمها "كات" في "لندن" حتى يمكنها متابعة دروس اللغة العربية سرا، ولحسن حظها كانت "كات" تساعدها في هذا الأمر وكانت تغطي غياب "صوفيا" بمختلف الحجج عند سؤال أسرتها عنها .

وحقيقة فقد اقتنعت "كات" كثيراً بمغامرة ابنة عمها وشجعتها عليها أيضا، وبدون "كات" لم يكن في مقدور "صوفيا" القيام بكل هذا . ولم تكن "صوفيا" تتخيل مدى صعوبة هذه المغامرة، مما جعلها تشعر بقيمة هذه الحياة الآمنة التي كانت تحياها حتى هذا الوقت، فقد كانت أسرتها تهتم بحماية "صوفيا" كثيراً، والحق أنهم لم يتركوا لها الفرصة أبداً في اتخاذ قراراتها دون مساعدتهم، وكانت "صوفيا" تستمع إليهم في هدوء، وقد كانت طفولتها مدللة وذلك لأن ثروة لورد وليدي "كارلتون" كانت طائلة .

وقد فتح لقاؤها مع "ديفيد" عينيها على الحقيقة، وأحست "صوفيا" لأول مرة في حياتها بالخجل، فما قيمتها في الحياة بالنسبة لما يفعله "ديفيد"؟ مجرد شخصية سطحية وأنانية .

ومنذ ذلك اليوم، قررت أن تصبح شيئا نافعا، وتشارك في الحياة ولو بمجهود ضئيل، وكانت هذه الرغبة في الوصول إلى الكمال تتمثل في شخصية "ديفيد" بحماسه في العمل الذي يمثل له مهمة ضخمة، بانتصاره وفشله وسعادته ...

وقررت اللحاق بهذا الرجل الذي جعل لحياتها هدفاً، ستعيش إذن مثله ومعه .

وعلى الرغم من جدية دراستها لهذه الرحلة، إلا أن الحياة في الصحراء قد صدمتها .. الحياة القاسية، والعوز الذي يعيش فيه سكان الصحراء النادرون،

كل ذلك جعلها تفكر .. ومع الوقت، أدركت أن الكماليات لا تهم البدو، ولا يهمهم إذن إلا القليل ...

وقد رتب أحد العاملين الإنجليز هذه الرحلة، واستطاعت بواسطته الانضمام لهذه المجموعة من حداة الإبل .. وكان كل شيء على ما يرام في البداية .. حتى أصابتها الحمى فجأة، ووجدت نفسها مع الوقت وحيدة في الصحراء مع هذا الغريب الذي يسمى "كارل كينجسلي" .

* * *

وكان "كارل" ينظر إليها في شك وريبة كما لو كان لا يصدق كلمة واحدة من هذه القصة .

- بالنسبة لهذا الخطيب الذي تتحدثين عنه، هل أنت واثقة إذن من مشاعره ؟

- على الرغم من أنه لا شأن لك بهذا، إلا أنني متأكدة من ذلك .

- إذن بماذا تفسرين فكرة تركه لك وحيدة في هذه الصحراء الخطيرة ؟

واكفهر وجه "صوفيا" :

- إن ... هو لا يعرف أنني قادمة إليه .

واكتست نظرة "كارل" الباردة بالسخرية .

- آه، لا يعرف ؟ مفاجأة إذن، أود أن تكون هذه المفاجأة له وليست لك .

- ماذا تقصد بهذا ؟

- إن الرجال يشعرون بالوحدة هنا، والفتيات العربيات غاية في الجمال .. إنهن ساحرات .

- هل تجرؤ على التلميح بأن ...

ورفع "كارل كينجسلي" كتفيه .

- إن هذه الأشياء تحدث هنا، فالحياة موحشة للغاية وأظن أن "ديفيد" هذا ليس قسيسا .

- حقيقة إنه أقرب ما يكون إلى شخصية القسيس .

- إذن، فأنا أرثي لك .. إن الزواج من قسيس لأمر غير سهل .

وحاولت "صوفيا" البحث عن إجابة لاذعة بينما كان "كارل" يتركها مبتعداً

دون أدنى اعتبار لوجودها . وقد فقد الحديث أهميته بالنسبة له؛ ولاحظت "صوفيا" أن "كارل" يعرج وأنه يمشي بصعوبة .

* * *

وظلت جملته بشأن الفتيات العربيات تلاحقها، حتى أن رأسها بدأ يؤلمها بشدة، ولكن : ما الذي يمكنها أن تفعله هنا؟ ومن يظن نفسه هذا الغريب الفظ؟ وفكرة الشك بـ"ديفيد" لهي أمر يدعو إلى السخرية .

وأحست "صوفيا" بالإرهاق، فتمددت على الأغطية وأغمضت عينيها .. لو يكف فقط هذا الصداع، وسكنت حدة الحمى ليلاً وتركتها في حالة من الإجهاد، وكانت مواجهتها مع "كارل كينجسلي" قد ضاعفت من حدتها، وفجأة سيطر عليها الإرهاق واستغرقت "صوفيا" في النوم دون أن تهتم بأي شيء يحيط بها. وفجأة أيقظتها يد من نومها بطريقة قاسية .

- للأسف لا يوجد هنا خادمة يمكنها أن تعد لفخامتك طعام الفطور في الفراش، بالإضافة إلى أن السكر والكريمة هما من الأشياء النادرة هنا .

ونظرت "صوفيا" إلى الكوب الموضوع بجانبها :

- أهذه قهوة؟ على كل حال لن تكون أسوأ من هذا المشروب الذي يتناوله حداة الإبل ويطلقون عليه اسم (شاي) .

وتناولت رشفة من الكوب ثم ابتسمت .

- ليس سيئا! وما طعامكم هنا ؟

- إنني اكتفي عادة بتناول ما أجده في طريقي بين هذه القرى .

وأضافت "صوفيا" في أمل :

- إنني طباخة ماهرة، وإذا ساعدتني في الوصول إلى "حجار" سأقدم لك كل ما تشتهيه من طعام .

- إننا في طريقنا إلى "عمرة"، وهناك سنفترق، وسأكمل رحلتي وحدي .

وسيطر عليها فجأة الفضول فسألته :

- ترى ما وجهتك ؟

وتردد "كارل" في الإجابة ولكنه قال على مضض :

- جهة الشمال على ما أعتقد .. وربما "مصر"، فأنا أحب النيل وأتمنى زيارة

الآثار القديمة والمعابد هناك .

– حقيقة، إنك تقوم بنفس العمل الذي لمتني عليه الآن! فأنت مجرد سائح يحاول الخروج والابتعاد عن الطرق الممهدة .

وأجابها باختصار شديد :

– ليس بالضبط، فالسائح يعرف جيداً الوجهة التي ينوي الوصول إليها، أما أنا، فأترك الأمر للمغامرة .

– تترك الأمر للمغامرة، أم تحاول الهرب من شيء ما ؟

وعند سماع هذا الحديث، اكتسى وجهه ثانية بالقناع الجامد، ورأت "صوفيا" في عينيه الزرقاوين غضباً يحاول جاهداً السيطرة عليه، ثم أجابها ببرود :

– سنرحل خلال عشر دقائق .. استعدي إذن

ثم تركها ورحل، ولم يخف على "صوفيا" في هذه الحالة أن ترى عرجه بوضوح. يالها من شخصية غريبة هذا الـ"كارل كينجسلي" فهو يثير فضولها بشدة ولكنه لم يعطها الفرصة لإشباع هذا الفضول. قد يحمل المستقبل القريب بعض المفاجآت معه: سيصطحبها "كارل كينجسلي" حتى "عمرة" ثم يتركها هناك ويكمل رحلته وحيداً، سيظل هذا اللغز عالقا في ذهنها إلى الأبد .

* * *

تماسكت "صوفيا" قليلاً ونهضت بينما كانت تشعر بأن ساقيها ترتعشان، وكانت أمتعتها معدة فوق جمل بارك على بعد عشرات الأمتار .

ولم تكن "صوفيا" تميل إلى هذه الحيوانات، ومع ذلك فهي وسيلة الركوب الوحيدة الموجودة في هذه الصحراء.

وسألها "كارل" :

– هل أنت مستعدة ؟

– نعم .

* * *

وكان الركوب على ظهر الجمل أمراً عسيراً بالنسبة لـ"صوفيا" وبعد أن امتطت الجمل، ركب وراءها "كارل" بقفزة واحدة. وعندما اقترب منها شعرت

برعشة ما تسري في جسدها، فالرحل مخصص لشخص واحد .

واضطرت "صوفيا" للالتصاق بـ"كارل" وشعرت هنا بشيء غريب يعتريها ، وأقنعت "صوفيا" نفسها أن هذه الرعشة بسبب الحمى .

وبدأ الجمل في النهوض عن طريق ارتكازه على قدميه الأماميتين، مما جعلهما يتأرجحان فوقه، وأمسكت "صوفيا" برقبة الجمل حتى لا تتعرض للسقوط من فوقه. والحق أنها كانت تخاف مجرد نظرة التهكم من قبل "كارل كينجسلي" إذا حدث هذا ! وكانت تحاول أن تظهر عدم اهتمامها برفيق رحلتها الجديد .

واستولت المناظر الخلابة للشمس الساطعة على رمال الصحراء على لب "صوفيا"، وكانت تود الوصول إلى "عمرة" بأسرع ما يمكن، وقد شعرت بأنه لأمر طيب أن تجد نفسها بصحبة دليل، ولم يكن يهمها في هذه اللحظة سوى شيء واحد : هو رؤية "ديفيد" .. فقد كانت تتوق شوقا لرؤيته ثانية وكاد صبرها ينفد ! "ديفيد" بعينيه الزرقاوين بلونهما الفاتح وشعره الأشقر ووجهه الهادئ .. وأغمضت "صوفيا" عينيها لتتخيل صورته ..

ولكن صورته كانت مشوشة في ذهنها حتى أنها لم تستطع تحديد ملامحه، ترى ما السبب في ذلك ؟

بالتأكيد فإن ذلك من أثر الحمى، ولن يستمر هذا طويلا .

كان الجمل يتقدم ببطء شديد فوق الرمال ذات لون العنبر، وكانت الحرارة الشديدة تحيط بهما من كل جانب، مما يجعل الوجود حولهما يبدو باللون الذهبي.

ولم يعد شيء أمامها يبدو حقيقيا .. فالرمال تمتد إلى مالانهاية ... والنباتات الشوكية تبدو كالأشباح على بعد ... وحتى أشكال الصخور التي نحتتها الرياح كانت غير واضحة ... والجبال أيضا كانت تبدو متموجة بلونها الأحمر بسبب سخونة الجو العالية .

وشعرت "صوفيا" بأن الخمول يعتريها بشدة وبدأ توترها يختفي شيئا فشيئا حتى أن جفونها قد ارتخت بالرغم منها . وأخذت حركة الجمل البطيئة تهدهدها

حتى استغرقت "صوفيا" في سبات عميق بين يدي "كارل كينجسلي" القويتين.

الفصل الثاني

استيقظت "صوفيا" فجأة وكانت تشعر بأنها تختنق، كان جسدها يؤلمها بشدة، أين هي الآن؟ وهذا الشخص الذي تستند عليه هو ... وانتفضت فجأة كما لو كانت ذاكرتها قد عادت إليها .

- لماذا ... لماذا نتوقف هنا ؟

وكان الجمل قد توقف في هذا المكان، ولقد استيقظت "صوفيا" بسبب تغيير وضعها من الحركة الرتيبة إلى الوقوف المفاجيء ، وكانا يقفان في أحد الأودية بجانب نهر جاف، وكانت الأمطار تملأ مجرى هذا النهر بجانب بعض نباتات السنط التي تنبت متفرقة هنا وهناك على جانبي المجرى فتمنح هذه المنطقة بعض الظل .

وقال "كارل" :

- إننا في وقت الظهيرة الآن، ومن غير المنطقي أن نواصل الطريق حتى "عمرة" فالطريق مازال طويلا ولن نستطيع مواصلة السير قبل الليل .

- كم استغرقت من الوقت أثناء نومي ؟

- عدة ساعات، كيف حالك الآن ؟

إنه يسأل عن حالها الآن، إذن فهو إنسان !

- إنني أحسن حالا الآن، لقد ساعدني النوم كثيراً، ولكنني أشعر بعطش شديد. وساعدها "كارل" في الوقوف، ثم بدأ ينزل الأمتعة من فوق ظهر الجمل، وأخذت "صوفيا" تنظر إلى نشاطه في الحركة .

- قد نسرع بعض الشيء إذا تفضلت بمساعدتي ياسيدة "كارلتون"، أم أنك اعتدت على خدمة الناس لك وتعتبرينني أحد خدمك الآن ؟

- لماذا تحاول دائما أن تبدو كريها ؟

- لأنني أرغب في التخلص من طفلة مدللة تبحث عن الأحاسيس والمشاعر القوية !

وضربت "صوفيا" الأرض بقدميها لشدة غضبها .

– أنت لا تعرفني، فما الذي يدفعك لتكوين هذا الرأي ضدي ؟

واستشاطت غضبا! فهذا الشخص يسبب لها ضيقا غير محتمل !

– آه، أنت تظنين أنني لا أعرفك: إن موقفك تجاه الآخرين كفيل بتعريفك، فعند بداية تعارفنا طلبت مني أن أصحبك إلى "حجار"، ولم يخطر على بالك للحظة واحدة أن هذا الأمر قد يعترض مشروعاتي، إنك تهتمين فقط بمشاكلك الصغيرة فكل ما يعنيك من الأمر هو حل هذه المشاكل التي تشغلك فقط يا عزيزتي .

– خطأ، وأنا أعترض على هذا! فهذه ليست طريقتي !

– حقا ؟

* * *

وكان لايزال ينزل الأمتعة من فوق ظهر الجمل دون أن يمنحها أدنى اهتمام، وسخطت "صوفيا" سخطا شديداً ولكن في صمت وقررت في نفسها أن هذه التصرفات من قبل رفيقها لابد وأن لها أساساً، ثم اقتربت منه .

– هل يمكنني مساعدتك ؟

وفتش "كارل" في الجراب الخاص به ثم أخرج منه علبة طعام محفوظ وقطعة من الخبز الجاف .

– أنت تدعين أنك طباخة ماهرة على ما أعتقد ؟

وقد حان الوقت الآن لاستعراض مواهبك، ستجدين جميع الأدوات اللازمة في هذه الحقيبة .

وقد كانت "صوفيا" قد تابعت أكثر من مرة كيف يشعل الحداة النار في الصحراء، واعتقدت – لأول وهلة – أن الأمر سهل، فأخذت تجمع قطع الحطب الملقاة بينما كان "كارل" لا يزال منهمكا في عمله .

ووجدت في الحقيبة، إناء وفتاحة علب ومسنداً من المعدن لوضعه فوق الحطب وتوصلت "صوفيا" في النهاية إلى إشعال النار، وأخذت تراقب بسعادة محتويات الإناء الذي وضعته فوق النار .

وقال "كارل" :

– ليس سيئاً .

– ليس سيئاً لفتاة مدللة غير محتملة .. أهذا ما أردت قوله ؟

ولأول مرة منذ رأته، وجدته يبتسم ابتسامة صافية، وقد كان وقع ذلك عليها رائعا .. فكانت عيناه تشعان بالحياة، ودبت الحيوية في جميع ملامحه، واختفت القسوة التي كانت ترتسم على وجهه تماما، وتأملته "صوفيا" متعجبة من هذا التغيير المفاجئ .

ثم قالت له :

– لابد وأن تضحك كثيراً .. لقد تغيرت تماما .

وعند سماع هذا الحديث، اكفهر وجهه ثانية، ثم أشاح بوجهه عنها، وقال لها بنفس الطريقة المقتضبة :

– إن الحياة لا تسمح لي بالمزيد من هذا .

ثم تناول إناء آخر مملوءاً بالماء .

– هل تشعرين بالعطش ؟

– أوه ! نعم .

وتناولت "صوفيا" رشفة من الإناء، ثم قالت :

– للأسف، للماء طعم ما واضح جداً بعد تناوله .

– سنحاول علاج ذلك .

ونظرت إليه معجبة به بينما كان يقوم بمعايرة كمية من السكر والدقيق لوضعهما في الماء، ثم أخذ يقلب هذه المحتويات .

– يمكنك أن تجربي هذا الشراب الآن .

وتذوقت "صوفيا" بحذر شديد .

– ليس سيئا .. كما أنه منعش .

– أليس كذلك ؟ إنها خدعة عرفتها من الجزائريين، وهم يسمون هذا الشراب (مبشة) .

* * *

ثم تناولا معا الطعام والخبز الجاف، وكانت هذه الوجبة بالتأكيد أخف وجبة تناولتها "صوفيا" طيلة حياتها ولكنها كانت أفضلها .

وقالت "صوفيا" لنفسها: بالتأكيد الصحراء تعد مدرسة للزهاد، وكانت في ذلك الوقت تقوم بتنظيف الأواني بالرمال .. فكل مايهم الإنسان هنا هو كيف يعيش. وبعد أن انتهى "كارل" من تناول طعامه، أخرج من حقيبته قصة بوليسية وبدأ في قراءتها، وكانت "صوفيا" أيضاً تحمل معها بعض الكتب، ولكنها لم تكن ترغب في القراءة هذه الليلة، وفضلت التأمل في هذه الطبيعة الخلابة أثناء غروب الشمس .

وكان لونها الذهبي يبدو كما لو أنه يغطي الصحراء كلها بأشعتها الأخيرة وعندما اختفت الشمس وراء الأفق، اختفت معها حرارتها على الفور .

وعند حلول الليل، ارتدت "صوفيا" معطفا من الصوف دون أزرار وزودت نفسها بالغطاء اللازم، وفعل "كارل" نفس الشيء ، ثم قال لها :

– يجب أن تخلدي إلى النوم الآن، سنرحل باكراً في الصباح، وإذا جرت الأمور على مايرام، سنصل "عمرة" بعد الظهيرة .

فأجابته "صوفيا" بأسلوب لاذع :

– يالها من سعادة عندما تتخلص مني أخيراً، أليس كذلك ؟

– أحب أن أذكرك أنني لم أبحث عن رفقتك في البداية .

– أنا أعرف جيداً أنني أضايقك، لقد قلت لي ذلك مراراً ! فأنت تعشق الوحدة ولاتحتاج إلى أي إنسان .

وصمت "كارل" طويلا قبل أن يهمس لها :

– من المؤكد أن الإنسان يحتاج إلى غيره في يوم أو في آخر، ولكننا نشعر أحيانا بالرغبة في البقاء منفردين .

– شخص يعشق الوحدة ! ياله من حظ رائع أن أجد نفسي وحيدة في الصحراء مع شخص زاهد .

* * *

وبعد أن قالت هذه الجملة الأخيرة، جذبت "صوفيا" الغطاء فوقها وأغمضت عينيها وحاولت النوم .

وعلى الرغم من قسوة الأرض، والبرد القاتل لهذه الليلة الذي نجح في اختراق هذه الأغطية السميكة، استطاعت "صوفيا" أن تنام .وبعد فترة خُيل إليها أنها تسمع صوت صراخ واعتقدت أنها تحلم، ففتحت عينيها ووجدت السماء صافية تلمع بنجومها البراقة والقمر الهادئ .

ثم تحولت هذه الصرخات فجأة إلى شيء يشبه النحيب .

– لا ، أوه ... لا .

"كارل" ... واندفعت "صوفيا" نحو رفيقها الممدد على بعد عدة أمتار منها .

وكان شعاع من القمر يضيء وجهه المرهق وخصلات شعره تلتصق بجبينه وكان لايزال يردد :

– لماذا أنا ؟ ... أنا مكانهم ؟ فأنا المسؤول .. المسؤول ..

لابد أنه يقع تحت سيطرة كابوس رهيب ..

وشعرت "صوفيا" بالقلق بشأنه، فأخذت تهز كتفيه حتى استيقظ .. وهنا بدأ يتحرك بشدة كما لو أنه يدافع عن شيء، وأمسك بجسدها بقوة لدرجة أنها أطلقت صرخة ألم على الرغم منها .

وفي هذه اللحظة التي كانت "صوفيا" تجاهد فيها لانتزاع "كارل" من هذا الكابوس، وقعت فوقه دون قصد وسيطر الرعب عليها فأخذت تناديه باسمه حتى يفيق.

ونجحت أخيرا في ذلك، وفتح "كارل" عينيه كالتائه، ونظر إليها كما لو كان ينظر إلى شبح .

– "كارل" ... إنه أنا ... "صوفيا"، اتركني أرجوك فأنت تؤلمني .

ونظر "كارل" إلى يديه، فوجد أنه يمسك بجسد "صوفيا" بقوة هائلة .. فتركها على الفور .

ودلكت "صوفيا" جسدها في المناطق التي كان يمسكها "كارل" حيث ترك علامات حمراء .

– ما هذا الكابوس ؟

– إنني ... إنني لا أتذكر شيئا .
ولم تلح عليه أكثر من ذلك وجلست بجانبه، ثم مالت نحوه :
– سأحضر لك قميصاً آخر إذا أردت .
– بربك .. اتركيني وحدي .
– يبدو أن الشياطين التي تلاحقك غاية في الرعب ..
رماها "كارل" بنظرة قاسية :
– كل ما أريده الآن أن تتركيني وشأني .. وليذهب إلى الجحيم كل من يحاول أن يدس أنفه في أموري من غرباء وأطفال مدللين !

* * *

وتراجعت "صوفيا" إلى الوراء، ما الذي يجعل هذا الرجل يهاجمها بصفة مستمرة؟
ولاحظ "كارل" كم كان قاسيا معها، فتحدث إليها ثانية بأسلوب أكثر رقة :
– سامحيني لوكنت تحدثت معك بأسلوب فظ .. ولكنك أيقظتني من النوم .
– هل يحدث لك ذلك دائما ؟ هل ترى نفس الحلم ؟
وأحست "صوفيا" من نظرته أنها كانت متطفلة في هذا السؤال ، ونظر إليها "كارل" في صمت طويل حتى اعتقدت "صوفيا" للحظة أنه سيأتمنها على سره. ولكن هيهات .. فقد اكفهر وجهه ثانية وقال لها ببرود :
– اسمعي .. إنني اعتذر لك للمرة الثانية لتصرفي معك بخشونة .. لننس هذه الحادثة إذن .. إذا أردت ؟
وسكت لبرهة، ثم أضاف مقطب الجبين :
– هل آلمتك ؟
– لا .. لا شيء .
– دعيني أرى مكان قبضة يدي .
وأظهرت "صوفيا" له ذلك على مضض، وفوجيء "كارل" بهذه العلامات على جسدها الناصع البياض .
– ستزول سريعا، فليست خطيرة ... إنها مجرد علامات زرقاء .

– مم ! انتظري، أعرف وسيلة مؤكدة يمكنها أن تخفف عنك بعض الشيء. اجلسي إذن وتمددي في مكانك .
أخذ "كارل" يدي "صوفيا" بين يديه الكبيرتين الدافئتين، ثم أخذ يدلك بأطراف أصابعه بخفة مكان هذه العلامات، وأيقظت لمسة يديه في "صوفيا" إحساساً رائعاً .. لدرجة جعلتها تغمض عينيها لتستمع بها .. ثم أفاقت فجأة من غفلتها وخلصت نفسها من قبضته .
– يكفي .. يكفي هذا ، شكراً .
والحقيقة أن "كارل" لم يلاحظ اضطرابها، وقالت "صوفيا" لنفسها احذري هذه التصرفات! ولكن أليست معذورة؟
فمن الطبيعي أن تشعر بأنها عصبية عندما يوقظها شخص ما بهذه الطريقة المخيفة أثناء النوم .
ثم قالت له "صوفيا" وهي تحاول النهوض :
– سأذهب لأحضر لك قميصا جافا .
وكان كل ما يهمها الآن هو الابتعاد عنه، وبعد ذلك عادت "صوفيا" ، وكان "كارل" قد تخلص من قميصه المبتل، ولم يكن يرتدي في هذه اللحظة إلا سرواله الواسع العربي الطراز، وكان جسمه يلمع تحت أشعة القمر، وعندما نظرت "صوفيا" إليه شعرت ببعض القلق، وأخذت تتأمله، فهو يذكرها بالمحاربين الذين يتم ذكرهم في الأساطير القديمة .
وأخذ "كارل" قميصه من يدها، وقال لها باقتضاب:
– أشكرك، اذهبي لتنامي الآن يا "صوفيا" فمازال هناك بعض الساعات قبل طلوع النهار .
– وأنت .. هل أنت على ما يرام الآن ؟
– حسن جداً .. حاولي أن تنامي إذن .
ونظرت "صوفيا" إلى حيث تركت أغطيتها، ثم رمقت "كارل" بنظرة خاطفة فوجدته ممددا على الأرض ويضع يديه مشبكتين خلف رأسه بينما ينظر إلى النجوم ساهما .. ترى إلى أي شيء ينظر هذا الرجل ؟

يبدو كأنه ينظر إلى شيء ما بداخله، وقد هرب منه النوم هذه الليلة .. وهي أيضا لم تنم للحظة واحدة ..

ترى ما سر هذا الرجل ؟ وأي سر غامض يحتفظ به لنفسه ؟

ظل "كارل" مكانه جامدا حتى أنه لم يلاحظ أنها لم تنم .. وظل الاثنان في هذه الحالة من الأرق .. وعلى الرغم من وجودهما معا ، إلا أنهما كانا منفصلين عن بعضهما دائما .. وظلا ينتظران الفجر ..

* * *

وجاء الصباح بارداً أيضا عندما بدأ "كارل" و"صوفيا" طريقهما من جديد .. ولم يكن أحد منهما يتذكر ما حدث في الليلة الماضية .. وارتدت "صوفيا" قميصا طويلا ذا أكمام طويلة وفوقه المعطف الصوف لتخفي العلامات الزرقاء بجسدها، كما ارتدت بنطلونا من الـ "جينز" و"صندل" متيناً، وعقصت شعرها الذهبي في ضفيرة لتحاشي الحرارة الشديدة، وعندئذ تذكرت مديح "ديفيد" لشعرها، فكم كان يعشق لونه العسلي ...

"ديفيد" .. كانت تشعر برعشة تسري في جسدها كلما ذكرت اسمه ... وقريبا سيجتمعان على السراء والضراء ..

وبعد ساعتين من السير المتواصل، رأت "صوفيا" سحابة من التراب تبدو على البعد.

- في رأيك ما هذا يا "كارل" ؟

- لا أعرف بعد ولكنها تبدو في اتجاهنا .

واقتربت هذه السحابة .. وأصبحت على بعد عدة أمتار منهما وعندما أزاحت الرياح هذه السحابة .. كان وراءها شبح قافلة على بعد .. وكانت الجمال تتقدم محملة بالمؤن وبالخيام وقرب المياه، وكان يحيط بها عدد من الرجال الذين يمتطون الجياد وتبدو أسلحتهم لامعة تحت ضوء الشمس .. ويظهر وراء الجمال قطيع من الماعز .

وظلت "صوفيا" تتأمل هذا المنظر الرائع .

- من هم يا "كارل" ؟

- بعض البدو يصطحبون قطيعهم نحو الجنوب لقضاء فصل الشتاء .. هل رأيت كيف يسافر الأطفال والسيدات ؟

ونظرت "صوفيا" إلى الجمال وهي تحمل الأمتعة على ظهورها وتتكون من الهوادج الخشبية المزخرفة والمغطاة بالحرير والسجاجيد الفخمة .

وهنا وهناك .. نجد أيادي صغيرة تفتح الهوادج، ويظهر وجه نسائي عبر هذه الفتحات .. وكانت الجمال أيضا مزينة بريش النعام والجلد المزركش .

وتحمست "صوفيا" لجمال هذا المنظر .

- ياله من منظر رائع !

- هيا لنراهم عن قرب .

واستطاع "كارل" بواسطة بعض الكلمات العربية أن يقترب مع "صوفيا" من القافلة .

وتقدم منهما اثنان من الفرسان للترحيب بالضيفين ، وبدأ "كارل" حديثا مشوقا معهما .. وكان يبدو كما لو كان يعقد معهما صفقة، وكانت "صوفيا" للأسف لا تعرف سوى كلمات قليلة جداً من اللغة العربية حتى تتابع حديثهما.

وأخيرا ، انتهى الحديث ببعض الإشارات من قبل البدويين ، وبعد ذلك قفز "كارل" فوق الجمل الخاص به وأخذ يتخلص من أمتعة الفتاة .

- ما الذي حدث ؟ وفيم كنتما تتحدثان ؟

- لديك مال ، أليس كذلك ؟

- بالتأكيد أنت تعرف بما أنك قد قمت بتفتيش أمتعتي من قبل، وبالتالي لابد أنك تعرف قيمة المبلغ الموجود بالضبط .

وأجابها بدون اهتمام :

- لقد أنفقت عليك جزءاً من هذا المبلغ .. والآن وافق البدو على مرافقتك حتى

الجنوب .

- كيف ؟ ولكني أرفض التوجه نحو الجنوب .. سألحق بـ"ديفيد" في "حجار" و"حجار" تقع في الشمال، وأنت لا تجهل ذلك .

نظر "كارل" إليها نظرة قاسية .

- يكفي هذا يا"صوفيا"، لقد ابتسم الحظ لك حتى هذه اللحظة، والمعجزة فقط هي التي أنقذتك من مخاطر الصحراء والله وحده يعلم ذلك .

فالصحراء أرض قاسية وغير رحيمة وخاصة بالنسبة لمن هم في مثل سنك، لقد أوشكت مغامرتك على النهاية يا"صوفيا"، والآن يجب أن تتصرفي بعقل وحكمة

فخلال أربعة أيام أو خمسة ستمر هذه القبيلة على حدود مدينة كبيرة، وستجدين هناك وسيلة للمواصلات لتقلك إلى المطار، وهناك تأخذين أول طائرة متجهة إلى "إنجلترا" .

واستشاطت "صوفيا" غضبا، ورمت "كارل" بنظرة قاسية .

- متى ستكف عن التحكم في حياتي ؟ إنني فتاة ناضجة وأعرف ما الذي أفعله بالتحديد، ولن أوافق على أن يتخذ أحد قراراتي بدلا مني .

- حقا ؟ ولكنني رأيت أنك لا تعرفين ماذا تفعلين، وإلا لماكنت هنا الآن .. إنني أتساءل كيف تركتك أسرتك تخوضين هذه المغامرة المجنونة، وعلى كل حال لو كانت أسرتك قد تنازلت لك عن مسؤوليتها عنك، فلن أفعل أنا ذلك.

- أنا لست مسؤوليتك . وكيف تسمح لنفسك أن تقول هذا الكلام عن أسرتي؟ فأنا أحبهم كثيراً وهم أيضا يحبونني .

- لقد دللوك كثيراً، وهذا يشرح لي سبب تصرفاتك العنيدة والشاذة، ولكنني لا أريد أن أتحدث عن ذلك الآن، فكل ما يهمني هو عودتك سالمة وآمنة، ولتكفي عن هذه التصرفات الصغيرة وتواجهي الحقيقة، فأنا أرفض قبول أهوائك هذه، حاولي أن تتصرفي بعقل لأول مرة في حياتك .

وعلى الرغم من قساوة هذه الكلمات، إلا أنها جعلت "صوفيا" تهدأ بعض الشيء

والحق أن "صوفيا" لا تخرج عن وعيها إلا في حالات نادرة جداً، ولكن "كارل" كان يملك موهبة إثارتها دائما .. وكان لابد لها أن تظل محتفظة ببرودها لو كانت تريد أن تتملقه .

ثم قالت بصوت هادئ :

- اسمعني.. فأنا أعرض عليك الآن أن نتحدث معا ولكن دون عصبية و...

- ليس هناك ما نتحدث بشأنه .. لقد انتهى كل شيء وسترحلين مع هذه القافلة وستعتني السيدات بك وستصبحين على ما يرام، وسترين ذلك، الحقيقة أنني لن أجبرك على العودة إلى "إنجلترا"، ولكنني أنصحك بذلك، ولتنسي مشروع رحلتك إلى "حجار"، ولو كان خطيبك يحبك حقا كما تقولين، لن يوافقك على المجازفة بحياتك للحاق به .

تحدته "صوفيا" قائلة :

- ولو رفضت ذلك وأصررت على البقاء هنا ؟

- سيكون هذا تصرفاً في منتهى الغباء منك، ولكنني لا أظن أنك قادرة على ارتكاب هذا الخطأ، وأنا واثق من أن ذكاءك لن يخونك هذه المرة .

ثم قفز فوق الرحل ونظر طويلا إلى "صوفيا" .

- لقد أثبتِ شجاعتك وجرأتك حتى هذه اللحظة يا"صوفيا"، ولكن هذه القصة ستنتهي عند هذا الحد .. عودي إلى بلادك وانتظري خطيبك هناك، إنه إنسان سعيد لأنه وجد السيدة التي قبلت عبور نصف العالم في هذه الظروف للحاق به.

وبدأ "كارل" يتحرك فوق جمله تاركا "صوفيا" في حيرة شديدة، وظلت تتابعه بنظراتها على أمل عودته ثانية ولكنه لم يعد ...

* * *

وأحست "صوفيا" بيد شخص على كتفها، فنظرت إليه ووجدته أحد رجال البدو فأشار لها لركوب الهودج الذي تم تخصيصه لها .. وبرك الجمل وصعدت "صوفيا" إلى الهودج، وتمتمت السيدة ذات الشعر الأسود التي ستشاركها هذا

الهودج ببعض الكلمات العربية التي تدل على الترحيب بها ثم استغرقت في صمت طويل .

ثم نهض الجمل واتجهت القافلة نحو الجنوب، بعيداً عن ... "حجار" ... بعيداً عن "ديفيد" ... وبعيداً عن ... "كارل كينجسلي" .

لم تحاول السيدة العربية التحدث إلى "صوفيا"، و الحقيقة أنها كانت تخافها بعض الشيء، فقد فشلت مهمتها التي أتت من أجلها، وأصبحت تبعد عن "ديفيد" الآن بمئات الكيلومترات؛ ولن ترى عينيه تشعان بالبريق عند رؤيتها فجأة .. ونظرته الحنون الرقيقة التي تتمنى رؤيتها الآن بدلا من عيني "كارل" المملوءتين بالاحتقار واللامبالاة .

* * *

ولم يكن الهودج من الداخل مريحا .. وكانت فكرة بقائها في هذا المكان لمدة أربعة أيام أو خمسة تصيب "صوفيا" بالاختناق .. وأخذت تفكر ماذا تفعل ؟ هل ستظل حبيسة هذه القافلة طويلا، ثم تعود بعد ذلك إلى "إنجلترا" وتتخلى عن أحلامها العريضة التي أتت بها إلى هذا المكان؟ إنها لم تصل إلى هدفها بعد لكي تظن أنها تخلت عنه .

* * *

وفتحت "صوفيا" الهودج بيدها وأشارت إلى أحد الفرسان للاقتراب، وحاولت أن تتحدث إليه بالعربية فنظر إليها الرجل في دهشة لدرجة جعلتها تظن أنها أخطأت في الحديث، فرددت ثانية :

– جمل .. أريد شراء جمل .

وأشار الرجل دهشا إلى القطيع، فأجابته "صوفيا"، بالإيجاب ، ولحق الفارس برفاقه، فتوقفت القافلة عن السير .

ورفضت القافلة بيع أحد الجمال لـ"صوفيا"؛ إما خوفا من تركها وحيدة في الصحراء .. أو من الابتعاد عن أحد حيواناتهم. وتحدث الرجال طويلا بلهجة

غير مفهومة، وأخيراً قرروا الموافقة على طلبها .

ودفعت "صوفيا" ثمنا مرتفعا لشراء الجمل والرحل والمؤن اللازمة للسفر، ولم تهتم "صوفيا" بهذا الثمن، فقد كان كل ماترجوه الآن اللحاق بـ"كارل" .

وصعدت "صوفيا" فوق الجمل ثم لوحت إلى رجال البدو بيدها مودعة إياهم، ثم اتجهت نحو الشمال .

وكانت خطة "صوفيا" تتلخص في اقتفاء آثار "كارل" حتى تلحق به .. وهي تعرف جيداً أنه لم يكن على عجلة من أمره .. لذا فإذا أسرعت هي الخطى بعض الشيء يمكنها إذن أن تلحق به قبل المساء .

وعند فكرة لقاء "كارل" كانت تشعر برعشة غريبة تتملكها، والحقيقة أنه لن يسعد بلقائها .. في البداية على الأقل .. ولكنهما سيتفاهمان بعد ذلك .

وربما تتمكن من إقناعه بمرافقتها حتى "حجار" ؟

وظلت "صوفيا" تقتفي آثار "كارل" بسرعة شديدة، وكانت في هذه اللحظة قد تأكدت من أن القافلة ابتعدت عنها كثيراً، وأصبحت الفتاة وحيدة في الصحراء لأول مرة، فشعرت بشيء من العصبية .. لا .. لن تخاف، وستلحق بـ "كارل" .

وكانت الصحراء تبدو أمامها كأنها لا نهاية لها .. وكم كانت تتمنى أن تجد أي شخص أمامها! وكان يحوم حولها نسر طوال الطريق .. وبدأت "صوفيا" تجد صعوبة في اقتفاء الأثر .

وبعد ساعات طويلة، بدأت الشمس في الغروب، وشعرت "صوفيا" بالحزن الشديد لاقتراب الليل، وقالت "صوفيا" لنفسها بصوت عال كنوع من التشجيع:

– هيا يا "صوفيا"، فـ"كارل" ليس بعيداً الآن، ولابد من مواصلة السير ...

* * *

وفجأة ماتت الكلمات على شفتي "صوفيا"، فقد وجدت أمامها اثنين من الفرسان يجريان نحوها .. وظلا ينظران إليها ثم تحدثا معاً، ولاحظت "صوفيا" أنهما مزودان بأسلحة، فشعرت بالخوف يعتريها .

قاطعا طريق؟ يبدو على هيئتهما ذلك، كما أنهما لم يلقيا السلام العربي المعروف.

وتمتمت "صوفيا" :

– ماذا تريدان

ولم يجيبا عليها، بل ذهب كل واحد منهما إلى أحد جانبي الجمل الذي تركبه "صوفيا" وأخذا عنان الجمل، وصرخت بصوت مختنق :

– ماذا ... ماذا تفعلان ؟

وعادت إلى ذاكرتها في هذه اللحظة كل ما حكي عن هؤلاء الأشخاص ..آه، لو كانت سمعت فقط التحذير، ولو كانت أخذت وصايا "كارل" مأخذ الجد بدلاً من عنادها المجنون! يالها من نتيجة سيئة ..

وكادت "صوفيا" تصرخ ولكنهما أجبراها على مرافقتهما والابتعاد عن أثر "كارل" .

واتجه الثلاثة عبر الصحراء .. نحو غاية مجهولة .

الفصل الثالث

كم مضى من الوقت في هذه الرحلة ؟ عشرون دقيقة ... ثلاثون ؟ شعرت "صوفيا" أن هذه المدة ساعات طويلة .

وأخيراً وصل الجميع إلى الوادي، حيث يوجد المعسكر والخيول والنار هنا وهناك وفروع الأشجار التي تحترق مؤدية إلى دخان كثيف يرتفع في الهواء فيشبه الثعبان الطويل .

وساعد الرجلان "صوفيا" في إنزالها من فوق الجمل الخاص بها واصطحباها إلى الخيمة الكبيرة، ودخلت الفتاة وهي ترتعش .

وفي الداخل، كانت الفخامة تحيط بالمكان على عكس المتوقع ..

ولاحظت "صوفيا" هذه الفخامة بالكاد، ذلك لأنها كانت تركز اهتمامها على الرجل الجالس عند حافة الخيمة فوق أريكة مغطاة بالوسائد .

وعندما تحدث هذا الرجل، تحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة أدهشت الفتاة .

– حسناً ياعزيزي "أحمد"، ترى ما الغنيمة التي أتيت بها إليّ اليوم ؟

وأخذ "أحمد" يشرح الأمر باللغة العربية، وخلال تقديمه لهذا التقرير الشفهي، لم تغادر نظرة هذا الرجل الغامض "صوفيا" للحظة واحدة .

وسألت "صوفيا" :

– من أنتم ؟ ولماذا أتيتم بي إلى هنا؟ هل هذا اختطاف ؟!

ولاح في عيني الرجل بريق غامض، بينما ارتسم على شفتيه الرفيعتين شبح ابتسامة .

– إنه اختطاف يافتاتي ؟ ألم تفكري في ذلك ؟

فأنا الشيخ "رشيد عمان حسين" وأنت ضيفتي المبجلة .

وعلى الرغم من معاملته الراقية، إلا أنها لم تطمئن له، وكيف تشعر بالأمان أمام

هذه النظرات الملحة ؟

– أرجو قبول اعتذاري لأنني أنظر إليك بهذه الطريقة، فأنت تمتلكين أجمل شعر رأته عيني،إن لونه لا مثيل له، فهل تسمحين لي أن أتأمله بعد حل هذه الضفيرة. وأخافت لهجته "صوفيا" كثيراً، فتوقعت خطراً داهماً، وعلى الرغم من أن الشيخ نطق جملته الأخيرة بأدب شديد، إلا أنها لم تخل من صيغة الأمر، ومن يعرف ما الذي سيحدث لها لو تجاهلته ؟

وحاولت "صوفيا" أن تغير الموضوع فقالت :

– أنت تجيد الحديث باللغة الإنجليزية .

وشعر الرجل بالزهو :

– لقد نشأت في جامعاتكم، وهي عادة أبناء هذه العائلة الغنية .. ولكننا نتحدث عنك الآن يا صغيرتي ..

هل قلت لك إنني معجب جداً بجمالك؟ فإنه أمر نادر في بلادنا أن نقابل سيدة شقراء مثلك ذات شعر رائع مثل شمس الصباح ..

وشعرت "صوفيا" بالتقزز، وكم ضايقتها هذه المجاملات الرقيقة من قبل الشيخ.

– إنني سعيدة بمعرفتك ياسيدي، ولكنني للأسف لا أستطيع الانتظار هنا طويلا، فلديّ موعد مهم، وأخشى أن أتأخر، ويجب عليّ أن أرحل بسرعة الآن .

اكتست ملامح الشيخ بالضيق .

– ترحلين يافتاتي الصغيرة؟ وكيف أتركك ترحلين ؟! لقد حل الظلام الآن وأصبح الخطر يتهدد السيدات المسافرات ليلاً ...

أحست "صوفيا" برغبة شديدة في البكاء .. ولكنها قالت لنفسها إن هذه الدموع لن تؤثر في الشيخ، ومن الأفضل لها أن تحاول خداعه .. ياله من موقف سيئ

– ولكنني لا أسافر وحدي، فهناك صديق ما ينتظرني في مكان بعيد عن هنا، ولقد حددنا موعداً للتلاقي و ...

– في الظلام .. يجب أن تقضي الليل هنا، وفي الصباح تواصلين طريقك، فأنا

أدعوك على العشاء هذا المساء .. وقد تشرفينني بفك شعرك النادر حتى أستطيع رؤية هذا الجمال الرائع .

ولم تشعر "صوفيا" بصوت شخص يدخل هذه الخيمة، وفوجئت بيد توضع على كتفها وكادت تصرخ من الخوف .

وقال الصوت في ثبات بصيغة الأمر :

– لن تفك هذه السيدة شعرها لشخص غيري، وهذا شيء طبيعي بما أنها زوجتي.

* * *

"كارل" ... اكتسى وجه الشيخ للحظة بالغضب ولكنه سرعان ما تحول إلى ابتسامة قاسية .

– لوكانت هذه السيدة زوجتك، هل يمكنك أن تشرح لي السبب في وجودها وحيدة أمام هذه المخاطر ؟

– لقد افترقنا إثر مشادة سخيفة بيننا، وأنا اعتذر لك ياعزيزتي عن هذا الخطأ. وأمسك "كارل" "صوفيا" من خصرها فنظرت إلى عينيه الزرقاوين بنظرتهما الحادة، وفجأة جذبها نحوه وقبلها بعنف ورغبة شديدين .

الخوف .. الاطمئنان .. السعادة .. اختلطت جميع هذه الأحاسيس لدى "صوفيا"، وتركت نفسها بين يدي "كارل" واستمتعت كثيراً بقبلته، وأحست بالرعشة تسري في جميع أنحاء جسدها .

لم تفق من هذه الإغماءة وتواجه الحقيقة إلا بعد ما تركها "كارل"، ولم تغير هذه المشاعر ملامح "كارل"، إنه يقوم فقط بتمثيل دور الزوج بطريقة مقنعة .

قال "كارل" للشيخ بلامبالاة :

– بما أنني عثرت على زوجتي ، يمكننا أن نرحل الآن، وأشكرك كثيراً على العناية بها .

ولاح على وجه الرجل العربي غضب شديد وقال :

– لن أسمح لكما بمواصلة رحلتكما هذا المساء،
كما أنني أصر على استضافتكما، وغداً يمكنكما بدء الرحلة من جديد .
وفوجئت "صوفيا" برضوخ "كارل" لهذا الأمر وعدم مناقشته إياه، واكتفى بهز رأسه علامة الإيجاب .
وقال الشيخ في رضا :
– حسناً ... سأوجه الأمر فوراً لإعداد خيمة لكما، وقبل ذلك سنتناول العشاء معا .
وجلست "صوفيا" بجانب "كارل" على الوسائد، وكانت لا تزال تشعر بقبلته، وجلس الشيخ في مواجهتها ولم يخجل من النظر إليها برغبة غير خافية .
وتناول الجميع العشاء في جو خيالي، ولم تنتبه الفتاة إلى ما تأكل، ولم تشعر أيضا بالمياه التي صبت على أصابعها، فقد جعلها موقف هذا الشيخ في غاية الاضطراب .
وكان "كارل" يتحدث كثيراً حتى يحول انتباه الشيخ عن رفيقة رحلته .. وكان من الواضح جداً أن التوتر يزداد بين الرجلين، ولم تنجح رقة الشيخ في إخفاء حقده وانزعاجه .
وأخيرا، انتهى العشاء، واستغل "كارل" فرصة الانتهاء من الحديث أيضا، فنظر إلى ساعته وقال :
– إن الوقت متأخر وأنا أعتقد أن الملل قد تسلل إلى زوجتي .. فهل يمكنك ياسيدي أن تعرفنا أين الخيمة التي أعددتها لنا ؟
وتخلى الشيخ عن النظر إلى "صوفيا" آسفا، وصفق بيديه فظهر الخادم على الفور ووجه الشيخ إليه بعض التعليمات باللغة العربية، ثم قال :
– سيقودكما "أحمد" إلى الخيمة .. وأتمنى لكما ليلة سعيدة .. وغداً سأراكما .. فهناك أمر ما أود أن أتحدث إليك فيه يا رجل .
سار الاثنان خلف "أحمد"، وقالت "صوفيا" :

– لماذا وافقت على البقاء هنا هذه الليلة؟ إنني أود الذهاب بعيداً عن هذا الشخص !
وهمس "كارل" :
– اخفضي صوتك، فإن "أحمد" يفهم الإنجليزية، ولكن هل تتخيلين أننا نملك الخيار؟ فلو لم نكن قد بقينا هنا بمحض إرادتنا، لكان الشيخ وجد الوسيلة التي قد لا تروقنا حتى يرغمنا على البقاء، تأكدي من ذلك جيداً .
– ولكنه لا يملك الحق في ذلك !
– كلا، ومن يستطيع منعه من ذلك؟ إننا على بعد كيلو مترات من المدينة .. والشيخ هنا هو السيد المطلق لهذه القبيلة .. ورجاله يطيعون جميع أوامره .
– آه "كارل" .. لقد تورطنا في هذا الأمر بسبب خطئي .
– لقد قلتها أخيراً .

* * *

قادهما "أحمد" إلى إحدى الخيام التي تبعد بعض الشيء عن الأخريات، وفي الداخل كان هناك سرير بجانب أمتعتهما التي تم نقلها إلى أحد الأركان، فأخرج "كارل" من حقيبته مشعلا ليضيء لهما المكان بنور ضعيف .
– والآن ... هل يمكنك أن تشرحي لى الأمر يا "صوفيا" ؟ .
– هل غضبت مني ؟
وشعرت "صوفيا" للحظة أنه على وشك الانفجار، ولكنه تماسك بصعوبة شديدة .
– لا، لست غاضبا ولكنني أتميز غيظاً، ولي الحق في ذلك، نعم أم لا؟ انظري إلى أين وصلنا بفضل تصرفاتك! هل لاحظت كيف ينظر إليك هذا الشيخ؟
إنه يرغبك .. وهذا النوع من الرجال اعتاد دائما إشباع رغباته والحصول على كل ما يريد .. هل تعرفين معنى ذلك؟ كفي عن هذه الأحلام يا "صوفيا" ..

فأنت تواجهين الحقيقة الآن .. وهي حقيقة لن تعجبك .

ورمى "كارل" بالغطاء على السرير، ثم جلس، وقالت "صوفيا" بصوت مرتعش :

– وإذا .. وإذا لم نستطع أن ننجو من هنا ؟

– هل تظنين أن رجال الشيخ سيتركوننا نرحل هكذا بعد أن تلقوا أوامر صارمة منه ؟

– إنني أبحث عن وسيلة فعالة ..

– فعالة ! لقد جعلتنا بعنادك نقع بين يدي هذا الشيخ الخطير، ثم تتحدثين الآن عن الفاعلية ؟

– لم أكن أريد مصاحبة هؤلاء البدو من البداية ؟

وعلى كل حال، فأنت المسؤول عن ...

– كفى !

واكتسى وجهه بملامح غضب شديد جداً، حتى أن "صوفيا" رفعت يديها لتحمي وجهها منه .

– لا تخافي، لن أضربك، لقد ارتكبت أخطاء كثيرة في حياتي، ولكنني لم أضرب سيدة أبداً، وعموما فأنت تتمتعين بصبر غريب .

ثم فكر قليلا، واستطرد بهدوء :

– اسمعي، لقد كانت العلاقة بيننا عاصفة منذ البداية، ولكنني لن ألوم أحداً سواك، ولكن ...

– آه ! كم أحب أن أسمع ذلك !

– لا تثيريني يا "صوفيا" .

– معذرة .. فعندما أخاف أبدو عدوانية جداً، فهذه طريقتي في الدفاع عن نفسي.

– مفهوم، ما رأيك في هدنة مؤقتة؟ فلن نستطيع العثور على حل مادمنا عدوين.

– عندك حق، موافقة ولنعقد هدنة .

وساد صمت قطعته "صوفيا" بقولها :

– هناك سؤال يلح عليّ منذ ساعات .. كيف عثرت عليّ ؟ كدت أموت من المفاجأة عندما رأيتك على باب الخيمة .

– والشيخ أيضا على ما أعتقد .. فلم يكن ينتظرَ قدوم الزوج وهو في هذه الحالة من الوله !

– أوه نعم، فياله من رجل رهيب الملامح ..

ولكن كيف وصلت في هذا الوقت بالذات ؟

– حسناً، بعد أن تركتك بين يدي البدو .. فكرت قليلا في موقفك وقررت اللحاق بك، وبينما كنت في طريقي أبحث عنك، لمحتك مع هذين الرجلين، فتبعتكم دون أن يراني أحد .

– وها نحن ضيفا الشيخ !

– لا تمزحي يا "صوفيا" .. فإن هذا الرجل مخيف، ألم تلاحظي كيف كان ينظر إلى شعرك ؟ وكم كان يتمنى لمس خصلاته الحريرية بأصابعه وحله حول وجهك..

* * *

وصمت "كارل" فجأة كما لو كان ندم على ما قاله، ولكن "صوفيا" لم تلاحظ هذا التعبير على وجهه .

– وما الذي يمكنني عمله الآن؟ هل أقصه .. لن تجبرني على قصه، إن "ديفيد" يحب شعري هكذا ولا أريد أن ..

وقال لها "كارل" ساخراً :

– لو كان يحب فيك هذا فقط، فخذي حذرك منه إذن .

إنه يهاجم "ديفيد" ثانية ؟ ولكن لماذا يحقد عليه إلى هذه الدرجة ؟ وتساءلت "صوفيا" في حزن إنه يمقته قبل أن يراه أو يعرفه !

وقالت له بصوت مرتجف :

– لا تكن غبيا! إن "ديفيد" يحبني بنقاء، ومجمل الأمر أنه يفضل شعري طويلا، ويحبني كما أنا .

وتنهد "كارل" ثم قال :

– لو كنت تودين المخاطرة بحياتك أمام هذه النظرة الجمالية .. فلك مطلق الحرية ! هيا يا "صوفيا" هدئي من روعك، فالموقف ليس حرجا إلى هذه الدرجة.

– في رأيك، هل سيصبح حرجا فيما بعد ؟

وكانت الفتاة قد هدأت قليلا، وكم كانت حساسة تجاه "ديفيد"، وخاصة عندما يهاجمه "كارل" بهذه الطريقة القاسية .. ربما لأنها كانت بداخلها غير مقتنعة به تماما كزوج وخطيب .

– إن هذا الشيخ سريع الغضب ويتحرك وفق أهوائه ورغباته، ومن الأفضل أن نتوقع منه دائما السوء، على كل حال لا يمكننا عمل شيء الآن .. فلننم الآن .. ومن يعرف ما الذي يخبئه القدر لنا غداً ؟

– ننام ؟ ولكني عاجزة تماما عن النوم !

وجلست "صوفيا" في السرير مرهقة .

– الاستحمام .. إنني مستعدة الآن للتخلي عن ثروتي مقابل حمام ساخن ..

وتقلبت "صوفيا" بين الأغطية وحاولت أن تغمض عينيها عندما قالت :

– "كارل" ... أين ستنام ؟ فلا يوجد هنا سوى سرير واحد .

– إنني أنوي أن أقاسمك إياه .

وقفزت "صوفيا" في مكانها :

– كلا بالتأكيد .. إنه ضيق للغاية .

– ولكنه يتسع لنا معا .

– أنت تصدمني يا "كارل"، فلو كنت رجلاً لطيفا حقا، لكنت افترشت الأرض.

– الأرض في هذا الجو البارد ؟ لا، أشكرك .. كما أنني لم أتصرف كرجل لطيف أبداً ياسيدة "كارلتون"، فلست في "إنجلترا" بل في الصحراء .

– إذن في هذه الحالة، سأفترش أنا الأرض .

– كما تريدين إذن ..

وما إن لمست "صوفيا" الأرض حتى ندمت على هذا التصرف المتسرع، فلا يوجد شيء مرهق مثل النوم على الرمال المختلطة بالحجارة، وبعد حوالي نصف ساعة قالت في يأس :

– "كارل" .. هل نمت ؟

ولم يجبها "كارل"، وكان تنفسه المنتظم يدل على ذلك، وتساءلت "صوفيا" يالها من جرأة، وبعد خمس دقائق كانت قد اتخذت قرارها، لتصعد على الفراش بجوار "كارل"، وبينما تتحسس طريقها إليه في الظلام، سمع "كارل" صوتها فقال بصوت يغلبه النعاس .

– ماهذا ؟ هل تريدين مشاركتي الفراش ؟ .

– بالتأكيد ... فأنا لا أستطيع النوم هنا، لوكنت "ديفيد" ما كنت عاملتني بهذه الطريقة أبداً .

– آه "ديفيد" ! الرجل المثالي ..كم من الممكن أن يشعر الإنسان بالملل معه!

– إنني لا أفهمك يا "كارل" .. لأي سبب تهاجم شخصاً لا تعرفه ؟

– ربما من الملل، فأنت تقضين وقتك في تملقه، هيا تعالي يا "صوفيا"، فأنا أرغب في النوم الآن .

* * *

وأطاعته الفتاة، وشعرت بسعادة شديدة لدفء الفراش .. وكان من الصعب جداً الابتعاد عن "كارل" وعدم ملامسته، ولم تستطع "صوفيا" أن تظل جامدة في مكانها، وأخذت تتحرك كثيراً .

– "صوفيا" .. ياك من فتاة مضحكة، فأنا لا أرغب الآن إلا في النوم، ولا أنوي استغلال الموقف .

– ومن يؤكد لي أنني أستطيع أن أثق بك ؟

فأنا لا أعرف عنك شيئا .. من أنت ؟ .. ولأي سبب تهيم على وجهك وحيداً في الصحراء؟ أنت شخص غامض جداً يا "كارل كينجسلي" .

– كلا بالتأكيد .. ولو لم تطلقي لخيالك العنان، لما كنت تصورت كل هذه الأفكار المجنونة .. والآن من فضلك دعيني أنام .

* * *

ولم تلح "صوفيا" أكثر من ذلك، وإن كان حديث "كارل" لم يقنعها .. فهناك ذكريات ما تطارده، ترى هل هو متهم بشيء ما ؟ أم أنه ارتكب شيئا يؤرق ضميره ؟ إنه إنسان مغامر، حر، وحيد ...

ولم تستطع "صوفيا" الاسترخاء .. وكيف يكون ذلك بجانب "كارل"؟ أما هو فقد استغرق في النوم تماما .. وعندما أغمضت عينيها سمعت ضوضاء كثيرة تملأ ليل الصحراء دائما .. صوت الرياح وصوت الرمال .. وبعيداً صوت الكلاب، ثم صدى كل هذا ...

الفصل الرابع

أحست "صوفيا" أن "كارل" استيقظ من نومه، فاستدارت نحوه وأخذت تنظر إليه وهو يجلس على حافة الفراش وكان يتمطى ويمرر يديه بين خصلات شعره بينما كان يتثاءب، وفوجئت الفتاة بأن هذا المظهر يبدو مألوفا جداً .. فهما يتصرفان كأنهما زوج وزوجة .. واستدار "كارل" نحوها :

– صباح الخير يا "صوفيا" .. أتمنى أن تكوني قد نمت جيداً ..

– ليس بالضبط .. للأسف ..

– لقد فكرت في طريقة تخلصنا من هذا المأزق .. هل لديك نقود ؟

– نقود ؟ لقد أنفقت جزءاً كبيراً لشراء الجمل، ومع ذلك يتبقى لي بعض النقود وأمسكت "صوفيا" بحقيبة يدها ثم أخرجت منها حزمة من الأوراق المالية وناولتها لـ "كارل" .

– إن السفر بكمية كبيرة من المال فيه خطورة على صاحبه .. إنك محظوظة لأنك لم تتعرضي للسرقة ..

كم من المال تستطيعين إنفاقه الآن ؟

– لا أهمية لذلك .. خذ ما تريد !

– لديّ أيضاً بعض الأموال السائلة، سأضيفها إلى أموالك .. أتمنى أن يكفي هذا المبلغ ...

– فيم تنوي استخدام هذا المبلغ ؟

– الوسيلة الوحيدة لخروجنا من هنا هي رشوة الحرس .. أتمنى ألا يكون هناك سوى حارس واحد .

– هل لدينا فرصة ؟

– لا أعرف ذلك .. على كل حال رجال الشيخ مخلصون جداً له .. ولكن قد يساعدنا هذا المبلغ في تخلي أحدهم عن إخلاصه .. يجب أن نغامر بذلك ..

سأذهب الآن. فكل دقيقة لها ثمن .

– كن حذراً يا "كارل" .

– أتمنى أن نخرج من هنا حيَيْن !

– إلى اللقاء .

* * *

خرج "كارل" من الخيمة بحذر .. وأحست "صوفيا" أن الوقت يمر ببطء شديد، وأخيراً عاد من جديد وبدأ يحزم الأمتعة بسرعة .

وقالت له "صوفيا" :

– هل وافق ؟

– نعم .. أعتقد أن رؤية هذا المبلغ من المال قد أدارت رأسه .. فالشيخ لا يدفع هذه المبالغ لحراسه بالتأكيد .

– عندما يتم اكتشاف هروبنا، سيتهم هذا الرجل بالإهمال .

– المهم أن الرجل يكون بمأمن من الموت .. هيا أسرعي ... إن الجميع نيام ويجب استغلال هذه الفرصة .

أمسكت "صوفيا" بحقيبتها ثم وضعت يدها في يد "كارل" ليقودها في الظلام.. وخرجا معا من الخيمة ووصلا إلى حيث يوجد الجملان .. ولحسن الحظ لم يوقفهما أحد .. وبعد دقائق معدودة كانا فوق الرحلين وابتعدا عن المعسكر .

وعندما تأكدا من أنهما أصبحا على بعد مسافة كافية، استدار "كارل" نحو رفيقة رحلته وقال :

– سنحاول البحث عن آثار أقدامنا القديمة، فلا يمكن أن نجازف بالسير في الصحراء هكذا .. ومن المؤكد أن الشيخ سيطلق رجاله وراءنا ..

– هل تظن أنه سيصل حتى هذه الدرجة ؟

– إن هذا الرجل مجنون وقادر على عمل كل شيء من أجل إشباع رغباته .

– لقد تأكدت الآن كم كنت مخطئة عندما بدأت هذه المغامرة وحدي .. ولولا

وجودك ما كنت خرجت أبداً من هذا المأزق .. أشكرك .

وانتزع هذا الاعتراف ابتسامة ساخرة من "كارل" .

– وجودي .. حقا ؟ ولو كان بطلك مكاني .. "ديفيد" الرائع ؟

* * *

وشعرت "صوفيا" بالضيق ... إنه يهاجم "ديفيد" ثانية .. والحق أنها كانت تعرف أن "كارل" لم يكن مخطئا .. فـ"ديفيد" لم يكن يستطيع السيطرة على الموقف بهذه الصورة .. وقد جعلها هذا التفكير تضطرب كثيراً .. فهناك خطورة عند عقد مقارنة بين الرجلين .. "كارل" المغامر، و "ديفيد" الرجل الذي يدافع عن معاني الإنسانية .. وكانت "صوفيا" تتأمل منظر الصحراء بينما كانت خطوات الجمل الرتيبة تهدهدها .

وأخيرا وجدا آثار الأقدام التي كانا يبحثان عنها عندما اختطف الحارسان "صوفيا" .. وكانت الرمال تمتد حولهما على مدى البصر كالبحر الجامد . لاوجود لرجل عربي أو نبات .. وشيئا فشيئا سيظهر النهار ويمحو أي أثر للضباب .

وعند أول شعاع للشمس .. اتجه الاثنان ليستريحا، وأخرج "كارل" من حقيبته خريطة وأخذ يفحصها، ثم قال :

– إن الخرائط لا تنفع كثيراً في الصحراء .. فالمعالم تختفي هنا سريعا .. آبار المياه تجف وتختفي والقرى يتركها أصحابها من يوم لآخر .

– بمعنى آخر .. إذا فقدنا هذه الآثار قد نتعرض للضياع .

– بالضبط .. ولكن عندي أمل، فقد أشار الجزائريون حديثا لوجود عين ماء في الشمال الشرقي هنا، ولكن الإرشادات التي تركوها ضعيفة ولست واثقاً من قدرتي على العثور عليها .. هل أنت مستعدة للمغامرة ؟

– معك كدليل أذهب إلى آخر الدنيا !

* * *

فوجيء "كارل" بهذا التصريح، فلم يكن يعتقد أنها ستشهد له بهذه الشهادة.

– أشكرك وأتمنى ألا أخذلك .. هيا إلى الطريق ياسيدتي .. ولنبحث عن هذه العين.

جلست "صوفيا" فوق الرحل وهي تشعر بالخوف لقد تعقدت الأمور فجأة، بينما كل شيء يسير على ما يرام في "إنجلترا" وتبدو الأمور سهلة ...

اللحاق بـ"ديفيد" والزواج منه والحياة بجانبه في سعادة بقية العمر .. هل كان هذا حلماً واهياً ؟

لماذا لم تسر الأمور كما كان متوقعا؟ فقد اضطرت لمصاحبة رجل يعتبرها عبئا عليه حتى تهرب من خطورة الشيخ .. فهو يبدو دائما متحفظا تجاهها، ونادرا ما يعاملها بلطف .. ولكن على الرغم من المعاملة الجافة التي تجدها من هذا الرجل إلا أنه يجذبها ..

ترى ماذا يخفي وراء هذه الصورة ؟ هل يترك سيدة تحبه وراءه في "إنجلترا" ؟ ومن أين جاء . ؟

عديد من الأسئلة دون إجابة .. فلم يكن "كارل" يرغب في منحها مفتاح هذا اللغز..

فمنذ أن عرفته وهي تشعر باضطراب لا سبب له ..

ولكن كل ذلك سينتهي مثل السحر عندما تجد "ديفيد" وترتبط به إلى الأبد..

* * *

أشرقت الشمس وبدأ نورها يسطع في كل مكان وأحست "صوفيا" بشدة الرياح وهي تحمل معها سحابة من التراب .. ولكن دائما الصمت حولها في الصحراء. لجأ "كارل" ومعه "صوفيا" إلى أشجار السنط ليستظلا بها من لهيب الجو الحار أثناء النهار .

وبدأ القلق يتسرب إلى "صوفيا"، فهي تعرف أن الماء الموجود معهما بدأ ينفد

وفي الصحراء لوفقد الماء والطعام، يكون الموت المؤكد بعد ساعات، فمن الضروري إذن العثور على بئر مياه أو واحة قبل غروب الشمس .

وبعد الظهيرة، كانت "صوفيا" تتألم من الجوعِ والعطش، كما بدأت الدابتان تشعران بالإرهاق الشديد وتتقدمان ببطء في الرمال الساخنة .. ونظرت الفتاة فوجدت أمامها على بعد شيئا ما يلمع تحت أشعة الشمس، فصرخت :

– "كارل" .. انظر هناك .. هل هذا سراب ؟

وظلل "كارل" عينيه بيديه ونظر نحو الأفق، ثم قال :

– إنها عين ماء يا "صوفيا"، لقد نجونا .

– كنت أعرف أنك ستجدها !

– حقا؟ أتنكرين أن اليأس كان قد بدأ يتسرب إليك ؟

– آه .. الحقيقة .. نعم .. فقد سمعت قصصا كثيرة عن السراب .. آه لوكان الجزائريون قد أعطوا لك علامات كاذبة ؟

* * *

واكتفى "كارل" بالابتسام .. وعندما وصلا إلى العين، كان "كارل" يركز اهتمامه على مساعدة الحيوانات المرهقة على الشرب .

وتنهدت "صوفيا" قائلة :

– يالها من حرارة محرقة .. لقد احترق جلدي .

– أقترح عليك أخذ حمام .

– حمام ؟ هذا رائع !

– هيا اذهبي أولا وسألحق بك بعد الانتهاء من مساعدة الجملين على الشرب.

* * *

وبدأت "صوفيا" تفك أزرار قميصها ... ولكنها فجأة أحست بالخجل الشديد .. كيف ستبدو نصف عارية هكذا أمام "كارل" ؟ .. ولكنها سرعان ما

تخلصت من هذه الأفكار وبدأت تنزع ملابسها، فقد كانت في حاجة شديدة إلى شيء من الانتعاش! وبعد دقائق قليلة كانت المياه تغطيها من كل جانب.

يالها من سعادة في التخلص من أتربة الصحراء التي غطت جسدها! وبدأت "صوفيا" تسبح على ظهرها .. بينما كانت أشجار السنط والنخيل تتأرجح على جوانب العين بفعل الرياح .. ولم تشعر "صوفيا" في حياتها بمثل هذه الراحـة..

- "صوفيا" ؟ هل المياه جيدة ؟

كان "كارل" قد وصل إليها في خطوته المتأرجحة بعض الشيء .. ونظرت إليه "صوفيا" في دهشة .. فقد كان "كارل" وسيما ورياضيا .. وأسمر اللون .. بينما كان "ديفيد" ناصع البياض .. وفجأة ركزت "صوفيا" عينيها على أثر جرح غائر في إحدى ساقيه .. إنه دليل على جرح قديم .. وبدأت "صوفيا" تتساءل من جديد ترى ما السر الغامض الذي يكتنف حياته ؟ وما الحادثة التي تسببت له في هذا الجرح؟ هل هي الآن في صحبة رجل تبحث عنه الشرطة ؟ ولكنها كانت تعتقد في عدم معقولية هذا الكلام، إذ ما الذي يمكنها أن تنتظره من رجل مثله ؟

وكان "كارل" في هذه اللحظة قد غطس في المياه و ظهر بجانبها .

- أليست هذه معجزة ؟ حمام سباحة في قلب الصحراء !

سبحا معا جنبا إلى جنب بدون أن يوجه أحدهما كلمة واحدة إلى الآخر . وبعد الاستحمام، فرش "كارل" غطاء على الشاطيء وناما فوقه .

وقالت "صوفيا" وهي تغالب النعاس :

- لابد أنني قد أحضرت معي منشفة .

- ولماذا ؟ لقد جفت المياه من على جسمك .

وأثار صوت "كارل" المميز "صوفيا" لتفتح عينيها، وكان يستند إلى كوعه وينظر إليها، بينما تشع من عينيه نظرة غريبة .

وشعرت الفتاة بالاضطراب وكانت تود القيام على الفور لارتداء ملابسها ولكنها لم تكن قادرة على أي حركة الآن، فقد كان هناك ضعف غريب يسيطر عليها ويشل حركتها. وغامر "كارل" ولمس ذراعها بيده برقة .. فبدا الأمر كما لو كان حلما ؟ وأحست "صوفيا" بإحساس رائع، ولم تكن تفكر إلا في شيء واحد قبل أن تسلم نفسها للنوم ... "لو كان يقبلني الآن" .

انزلق رأسها على كتف "كارل" ، واقتربت منه كثيراً بدون أدنى شعور بذلك ..

وعندما استيقظت من النوم كان الظلام قد تسرب إلى الصحراء، ووجدت نفسها مغطاة لحمايتها من البرد، فقامت "صوفيا" ودثرت "كارل" بالغطاء ثم جلست .

وكان هناك على الجانب الآخر من البئر مجموعة من البدو ينصبون الخيام للمبيت، وكان الأطفال يلعبون هنا وهناك بينما تأكل الماعز والخراف من الأعشاب المتناثرة على جوانب العين .

كان هذا المنظر مشوقاً جداً بالنسبة لـ"صوفيا"، ثم تحول نظرها نحو "كارل" الجالس على مسافة ليست بعيدة عنها .

- هل استيقظت يا"صوفيا" ؟ .. لقد تلقينا دعوة على العشاء .

- دعوة ؟

- ألا تعرفين كرم البدو الأسطوري ؟ لقد دعونا لتناول العشاء معهم .

* * *

وبدأت "صوفيا" تستعد لهذه الدعوة، ثم انطلقا معا نحو هذا المعسكر حيث تم استقبالهما بحفاوة شديدة .. ولم يستطع هؤلاء البدو إخفاء الفضول الذي سيطر عليهم لوجود هذين الغريبين في الصحراء على ظهري الجملين ، فهذا الأمر لم يكن مألوفا لديهم .. ومن جديد، دهش الجميع عند رؤية شعر "صوفيا" الرائع الجمال .

وبدأت "صوفيا" تتجول بين الخيام، ووجدت خيمة كبيرة ذات لون بني تتوسط

الخيام جميعا، بينما تشتعل النار هنا وهناك، ويتراقص لهيبها تحت أباريق الشاي المصنوعة من النحاس .. وكانت النساء يتحدثن أثناء إعداد الطعام .
وأخذ الضيفان مكانهما حول النار، وكان الطعام . بارة عن صحون من اللبن الرائب بجانب الوجبة الرئيسية "العصيدة"، وهي نوع من المرق الكثيف المعد بدقيق الذرة .. وكانت "صوفيا" قد تذوقت هذا الطعام من قبل عندما كانت بصحبة حداة الإبل في بداية طريقها، أما الحلو فكان عبارة عن بلح مجفف منقوع في العسل .
وبعد الانتهاء من تناول الطعام، بدأ الموسيقيون في العزف والغناء بأغاني الصحراء والرحلات بالطبول والقيثارة .
ولم يكن بمقدور "صوفيا" فهم هذه الأغاني ..
وأخيراً توجه الجميع إلى الخيام للنوم، وكان هناك خيمة خاصة لاستقبال "صوفيا" و "كارل" وشعرت "صوفيا" باضطراب "كارل"، فسألته :
– ما الذي حدث يا "كارل"؟ هل أخبرك البدو بشيء ؟
– نعم يا "صوفيا"، لقد تأكدت مخاوفي الان .. فقد تقابل البدو هذا الصباح مع شخص في الطريق كان يبحث عن سيدة تطابق أوصافها أوصافك .
واكفهر وجه "صوفيا" :
– هل الشيخ مازال يبحث عني ؟
– للأسف نعم، الحقيقة أن المخاطر تلاحقني دائما بسببك .
– ولكن ما الذي أستطيع عمله ؟ فلا ذنب لي إذا كانت أفكار هذا الشيخ ونواياه سيئة .
– لو لم تغادري "إنجلترا" ما كان حدث أي شيء من هذا .
– لم أكن أرغب في البقاء في "إنجلترا" .. كنت أنوي اللحاق بـ"ديفيد"، فإنني أفتقده كثيراً ولا أستطيع فراقه ليوم واحد .
سبب هذا الاعتراف لـ"كارل" ضيقا شديداً، فبدت ملامحه أكثر قساوة تحت

ضوء القمر .
– ترى ما الشيء الذي تفتقدينه فيه ؟ حديثه الرائع أم قبلاته الرقيقة ؟ وكيف يأخذك بين ذراعيه يا "صوفيا" ؟ هكذا ؟
وقبل أن يتم جملته ، كانت "صوفيا" بين ذراعيه، وقبل أن تحاول التخلص من قبضته، كانت شفتاه قد سيطرتا على شفتيها برقة شديدة .. وأحست "صوفيا" بانفعال هائل، وهمس "كارل" بصوته الدافئ :
– هل أحيا ذلك بعض الذكريات لديك يا "صوفيا" ؟ هل يقبلك "ديفيد" بهذه الطريقة ؟
كان الليل رومانسيا بصحبة هذا الرجل .. ومع ذكريات "ديفيد"، شعرت "صوفيا" باضطراب شديد .
وعندما لم تجب عن سؤال "كارل"، قال لها بهجوم :
– إذن فـ"ديفيد" هذا إنسان غبي .. ولا يعرف شيئا عن لعبة الحب .
واستولت شفتاه ثانية على شفتيها بقوة هذه المرة، ولأول مرة في حياتها شعرت "صوفيا" بما يسمى برغبة الجسد، وأحست أنها بحاجة شديدة إلى هذا الرجل فتركت نفسها بين يديه في فرح وسعادة .
وبعد فترة، تركها "كارل" واتجه نحو شجرة واستند إليها وأدار وجهه نحو الصحراء الواسعة، ثم قال لها بلهجة الأمر دون أن ينظر إليها :
– هيا... يجب أن تنامي الآن يا "صوفيا"، فسنرحل غداً . وبحثت الفتاة عن إجابة بينما كان جسدها كله يرتعش، ثم تمتمت :
– وأنت .. يا "كارل" ؟ فأنت بحاجة إلى الراحة ..
– سأتولى الحراسة قليلا .. فهذا شيء ضروري بعد أن عرفنا أن رجال الشيخ يحومون حولنا .

* * *

وأخذت "صوفيا" الأغطية وفرشتها لتنام، ولكن النوم كان قد هرب منها ..

وأحست أنها ضعيفة وواهنة، وكانت في كل لحظة تفتح فيها عينيها، ترى أمامها "كارل" وهو يتطلع بعينيه نحو السماء المرصعة بالنجوم البراقة .. بينما يخيم الصمت على المكان كما لو كان العالم قد توقف حولهما عن الحركة والحديث

***

الفصل الخامس

وعندما فتحت "صوفيا" عينيها في الصباح، كان "كارل" يقوم بوضع الرحل على الجمل. فنظرت حولها بينما كان الخوف يسيطر عليها . وجدت الجمل الخاص بها يقف على مسافة بعيدة دون أي إعداد .

- "كارل" ! هل تنوي الرحيل وحيداً ؟

استدار "كارل" نحوها بعينين ساخرتين .

- الحقيقة أنه اقتراح جيد، ولكنني لم أفكر فيه .. خذي حذرك، قد أتبنى هذا الاقتراح .

- أين ستذهب إذن ؟ يبدو أنك لا تنوي اصطحابي معك بما أنك قد قمت بوضع الرحل على جمل واحد .

* * *

ياله من شخص يختلف عن هذا الذي أخذها بين ذراعيه أمس ! إنها الآن تتعامل مع رجل غريب .. يبدو أن "كارل" يود إلغاء آخر ذكرى لما حدث ليلة أمس .

- أنوي التغيب لعدة ساعات .. لقد أخبرني البدو أن هناك في الشرق قرية صغيرة .. سأذهب إذن لشراء بعض الحاجيات .. وسأعود عند الظهيرة لو خدمني الحظ .

- ولكنك ستعود ؟ لقد وعدتني بذلك ؟

- هل تظنين أنني أنوي تركك وحيدة هنا في الصحراء ؟

- لا .. أقصد .. لقد قلت لي أكثر من مرة إنني عبء عليك ..

- حقا .. فأنا المسؤول عنك الآن .. كفي إذن عن هذا القلق ... سأعود .

- هل يمكنني أن آتي معك ؟

- ستكونين بمأمن هنا، من المؤكد أن الشيخ أرسل رجاله للبحث عنك في الطرق

والقرى .. انتظري هنا، إلى اللقاء .

* * *

كادت "صوفيا" تتوسل إليه ليأخذها معه .. ولكنها تماسكت في النهاية .. وظلت تنظر إليه جامدة أثناء سيره، حتى اختفى عن عينيها في الصحراء الشاسعة .. وجلست "صوفيا" وحيدة تحت ظل نخلة وكانت الحرارة محرقة .. وبدأت تفكر في "إنجلترا" المليئة بالخضرة والمدنية .. ترى كيف حال أسرتها على بعد آلاف الكيلومترات ؟ لابد وأن والدتها مازالت تزرع الحديقة .. وتذكرت "صوفيا" الألوان المختلفة والرائعة للورود التي تنمو على جانبي الممر، ورائحتها العطرة .. فعائلة "كارلتون" تعشق هذا القصر الذي تعيش فيه والذي تشبه مبانيه الطراز الفيكتوري .. آه لو كانت هناك الآن .. تلعب التنس وتخرج مع صديقتها .. ولكن في الحقيقة "صوفيا" لم تكن تندم على بدء هذه المغامرة .. فهي تتمنى دائما ملاقاة "ديفيد" .. كما كانت تتمنى التخلص من حياتها الروتينية وتتطلع إلى الحرية والرغبة في الاستقلال .. وقد كانت عائلتها تجهل هذه الرغبة .. ولكن مغامرتها قد اختلفت تماما عما كانت تتوقع ..

والآن ها هي تحيط بها الصحراء وهذا المحيط من الرمال، والبدو الذين كانوا يعسكرون بجانبها ليلا ثم رحلوا بحثا عن واحة أخرى تنهل منها حيواناتهم .

وعند الظهيرة، شعرت "صوفيا" بالقلق وقد بدأ يتسرب إليها .. وظلت ترقب الصحراء عن بعد متطلعة لظهور "كارل" بشعره الأسود وعينيه الزرقاوين .. ولكن دون جدوى، فلاشيء يتحرك أمامها، فقط الهواء الساخن والأرض المحرقة .. وبعد فترة بدأ الاحمرار يملأ عينيها والألم يعتصر رأسها .. وأصبحت تشعر أنها تمثال من الحجر .

وأخيراً رأته، وكادت دقات قلبها تتوقف .. إن هناك شخصاً يركب جملا ! وكان وحيداً ويتجه نحو الواحة .. وجرت "صوفيا" ناحيته .. ولكنها توقفت ثانية .. لو كان هذا الرجل رجلا آخر غير "كارل"؟ لوكان أحد رجال الشيخ .. أو الشيخ

"رشيد" نفسه وتمتمت "صوفيا" :

- لا، إنه "كارل" .. فأنا أعرفه جيداً .

فهي تعرفه على الرغم من المسافة التي تفصل بينهما والملابس العربية التي يرتديها .. نعم تعرف طريقة سيره، وظلت تترقب وصوله بحذر حتى اندفعت نحوه وهي تصرخ :

- "كارل"، أوه "كارل" كنت أعتقد أنك لن تعود أبداً، أبداً .. وكم كنت أشعر بالخوف ...

- لقد اعتدت دائما على الوفاء بوعودي .

- نعم أعرف ذلك ولكن .. آه ! لا يهم شيء الآن مادمت هنا .. لقد شعرت بالوحدة دونك .. كانت الساعات تبدو كأنها أيام طويلة ..

وتوقفت "صوفيا" عن الكلام بعد أن رأت هذه النظرة الساخرة التي ينظر بها، ثم تابعت :

- هل وجدت ماكنت تبحث عنه ؟

- نعم، أعتقد ذلك، خذي هذه اللفافة الصغيرة .. إنها لك .

- لي ؟ ما هذا ؟

- افتحيها .

وأطاعته "صوفيا" وفتحت اللفافة ودهشت كثيراً عندما رأت محتوياتها .. إنها ملابس فضفاضة من القطن تشبه تلك التي يرتديها "كارل" .. قميصان طويلان وسروالان واسعان .

- أهذا لي ؟ أنا .. إنه لشيء لطيف جداً، ولكنني أريد الاحتفاظ بقميصي والبنطلون الـ "جينز" .. إن الملابس العربية رائعة، ولكنها لا تلائمني .

- كيف عرفت ذلك دون تجربتها ؟

- لا .. أنا أرفض .

وبدا "كارل" منزعجا حتى أنها سألته :

– ولماذا فعلت ذلك ؟

– هناك أسباب لذلك ياسيدتي .. بالإضافة إلى أن هذه الملابس مريحة .. فإنها ستجعلك تسيرين بحرية دون أن يراك أحد .. وهذا ما يلزمنا في الوقت الحالي.. بملابسك هذه الأوروبية وشعرك يمكن لرجال الشيخ العثور علينا بسهولة.

– حسناً .. لقد اقتنعت برأيك .. ولكن ماذا بشأن شعري ؟

– لقد فكرت في ذلك .. انظري إلى هذا .

وأعطى لها علبة صغيرة ففتحتها "صوفيا" :

– مسحوق أسود ؟ أنا لا أفهم .

– لقد قال البائع إننا يمكننا خلط هذا المسحوق بالماء، فيعطي لونا أسود فعالاً جدا .

– هل تريدني أن أصبغ شعري باللون الأسود ؟

– أمامك اختياران : إما أن تصبغيه .. أو تقصيه .. فأيهما تفضلين ؟

وسكتت "صوفيا" قليلا قبل أن تجيب :

– وهل يختفي هذا اللون بالغسيل ؟

– أنت تسألين كثيراً .. ولكنني لم أوجه مثل هذا السؤال للبائع .

– كان يجب فعل هذا ! ماذا لو كانت الخسارة غير قابلة للعلاج ؟

– "صوفيا" فكري قليلا ! حقيقة شعرك رائع الجمال ولكنه علامة مميزة جداً .

وعلى الرغم من منطق حديثه، إلا أن "صوفيا" ظلت مترددة .

– وليكن .. بما أن ذلك ضروري .. ولكنني أحذرك .. إن انتقامي سيكون رهيبا لو ظلت هذه الصبغة عالقة بشعري !

– هيا بدلي ملابسك حتى أعد لك الصبغة .

* * *

وعادت "صوفيا" بعد دقائق وهي ترتدي الملابس العربية .

– أشعر أنني مختلفة وغريبة جداً في هذه الملابس .

– ولكنها تلائمك ..

– أنت لطيف جداً ولكنني لا أصدق كلمة واحدة من هذا .

– ما أهمية ذلك الآن؟ هنا لن يراك أحد غيري ! وتأملها "كارل" مليا قبل أن يقول لها :

– أعرف أن هذا الأمر عسير بالنسبة لك يا "صوفيا"، فلم تكوني مستعدة لكل هذه الأحداث . وحقيقة أنا دهش جداً أمام تصرفاتك تجاه هذه الأحداث .. ولو كنت تصرين على الزواج من "ديفيد" لابد من تحمل جميع الصعاب التي تنتظرنا، فالأرض هنا غير رحيمة نهائيا .. فلابد من أن يكون لدى الإنسان حيوية هائلة حتى يستطيع الصمود والبقاء حياً .

– وهل تظنني غير قادرة على ذلك ؟

– لم أقل هذا .. فقد أردت فقط تنبيهك ..

– لا تعاملني كطفلة .. فأنا لا أحتمل هذا !

– من أنت يا "صوفيا" إذن ؟ هل تفكرين في هذه الأشياء على الرغم من أننا معرضون لهجوم رجال الشيخ ؟ هل تهتمين بما إذا كانت ملابسك تلائمك أم لا ؟

* * *

وشعرت "صوفيا" بالإضطراب والضيق .. فليذهب إلى الجحيم هذا الرجل الذي يشعر دائما أنه على صواب ! ألم يكن له هفوات أبداً ؟ وقالت له بجفاف :

– حسناً ... ماذا بشأن الصبغة ؟

– هل قررت ؟

– وهل لديّ اختيار ؟

– ياله من سلوك .. هل يعرف "ديفيد" طباعك جيداً ؟ أراهن على ذلك ! لنهتم بشعرك الآن؟

وركعت "صوفيا" أمام الصبغة، وقال لها "كارل" :

- اخفضي رأسك قليلا حتى أساعدك .

واختفت خصلات شعرها الشقراء تحت تأثير هذا اللون الأسود ، ووضع "كارل" الخليط على بقية شعرها ، وانتظر قليلا، ثم صب الماء فوق شعرها . - هيا لقد انتهينا .. جففي شعرك الآن .

وبعد ذلك وضعت "صوفيا" المنشفة حول رأسها ، وقال لها "كارل" ضاحكا:

- لابد أن يأتي اليوم الذي ترين فيه النتيجة .

نزعت "صوفيا" المنشفة فتهدلت الخصلات السوداء فوق كتفيها .. وصرخت "صوفيا" جزعة عندما تأملت نفسها في المرآة :

- شيء رهيب ! سيجد "ديفيد" ذلك بشعا !

- لو كان يحبك .. لن يهتم بلونه سواء أشقر أم أسود فالمهم أن يجدك .. أليس كذلك؟

- ولكنك لا تستطيع أن تفهم ...

* * *

ونزع "كارل" المرآة من يديها بعنف وقذف بها بعيداً .

- كفاك نحيباً، أن يكون شعرك أشقر أم أسود .. ماذا يهم في ذلك ؟ ليست مأساة ! يجب أن تقدري أنك مازلت حية وأنك تتمتعين بصحة جيدة !

وعندما انتهى من حديثه، توجه مسرعا نحو العين ونزع ملابسه بسرعة، ثم غطس فيها .. وبعد فترة عاد من جديد وجلس على جانب العين جامد الوجه .

- إن كل ذلك بسببي، أليس كذلك ؟ فقد بالغت في .. واكتسى وجهها بالحمرة أمام نظرته الثابتة .. ترى ماذا سيقول لها ساخراً .

- لماذا تنظر إليّ هكذا ؟ .

- حاجباك .. إن شعرك أسود ولكن حاجبيك مازال لونهما فاتحاً .

- آه .. نعم .. وكيف نعالج الأمر الآن ؟

- سأحاول صبغهما .

وقام "كارل" بأحد أصابعه بصباغة حاجبيها بلمسات رقيقة .

- لا تخافي .. ولا تتحركي .. فلن أضع الصبغة في عينيك .

وشعرت "صوفيا" بالاضطراب ، عندما لاحظ "كارل" :

- إن رموشك فاتحة اللون .. ولكنني لن أخاطر بصباغتها .

- ليست هناك مشكلة .. فلديّ مستحضرات التجميل اللازمة لذلك ..

ودهش "كارل" لحديثها وانفجر ضاحكاً: آه يا "صوفيا" إنك الوحيدة في الصحراء التي تحمل معها مستحضرات التجميل ... ترى ماذا تحمل حقيبتك من مفاجآت أخرى ؟

واكتسى وجه "صوفيا" بحمرة الخجل .. ترى لو عرف "كارل" أنها تحمل قميص نوم رائع الجمال معها لليلة زفافها .. !

- سأذهب لأحضر حطبا لإشعال النار .. فوراً ..

بدأت الشمس في الغروب، وكان لابد من مواصلة الطريق الآن، فهي الليلة الثانية لهما معاً في الصحراء، وفي هذا الوقت كانت هناك قبيلة أخرى من الجزائريين تنصب خيامها على الجانب الآخر من العين ..

وبعد تناول الطعام، اقتربت "صوفيا" من النار، كذلك "كارل" .. بينما كان يخيم الصمت على المكان ..

وقال "كارل" فجأة :

- هناك شيء يؤرقني يا "صوفيا" .. لماذا هربت من "إنجلترا" ؟

- أنا .. هربت ؟ ما الذي تنوي اختراعه ؟ لقد رحلت لألحق بـ "ديفيد" وأتزوجه .. ولم يكن هرباً !

- أنا أراهن أن أسرتك لا تعلم بالأمر .. لماذا هذا الغموض يا "صوفيا" ؟ هل تشعرين بالخجل من "ديفيد" ؟

- الخجل من "ديفيد" ؟ على العكس .. أنا معجبة به جداً . فهو أفضل رجل رأيته في حياتي .. والحقيقة أن تلميحاتك مزعجة !

- أنا لم ألمح بشيء .. فعلى ضوء كلامك .. يبدو أن "ديفيد" هذا شخص كئيب

ممل للغاية .. ولكن قد أكون مخطئاً .. ربما تتطلعين إلى حياة هادئة خالية من الحب ..

– أنت إنسان كريه !

– بل واقعي ، هل أتوقع لك حياة لاتلائمك ؟ فأنت لست من النوع الذي يقبل الحياة الروتينية يا "صوفيا" .

وقبل أن تعترض "صوفيا"، تابع "كارل" حديثه :

– أترين معي أن هناك هدفاً آخر وراء زواجك من "ديفيد" وهو الهرب من حياتك، قصتك مع "ديفيد" منحتك حجة ممتازة وقد حاولت اغتنام الفرصة.

ونظرت "صوفيا" إليه نظرة قاتلة .. فالحق أنها كانت تتمنى الابتعاد عن منزلها وتكوين حياة جديدة تحصل فيها على استقلالها .

ولكن هل هي بحاجة إلى عبور نصف العالم لتحقيق ذلك ؟

إنها تود الآن العودة ثانية إلى "إنجلترا" .

ولكنها قامت بكل هذا من أجل "ديفيد"، فقد حركت مثاليته مشاعرها وأعطتها القوة للتخلص من هذه الجسور ..

– أنت تريد أن تقول إنني استخدمت "ديفيد" كمجرد حجة !

– أليس هذا هو الوضع ؟

– لا، ليس هذا هو الوضع .

* * *

وكادت "صوفيا" تصرخ .. ولكن لأي سبب تشعر بهذا الضيق ؟ هل لأنها تشك في نفسها ؟

– أنا أحب "ديفيد" .. أحبه حباً حقيقياً .

– وهو يا "صوفيا" .. هل يحبك ؟ هل يحبك بنفس القوة التي تتمنيتها ؟

جاهدت "صوفيا" كثيراً للسيطرة على غضبها .

– ماذا تعني بهذا السؤال ؟

– أعني أن شخصين مثلكما يختلفان في الطباع، من الصعب أن يتوصلا إلى التفاهم فيما بينهما .. لابد على كل شخص في الدنيا أن يكتشف هذا الذي يوافقه في التطلعات .. وبغير ذلك قد تتعرض حياته للفشل .

– إلى أي شيء تريد أن تصل يا "كارل" ؟

– أنت امرأة قوية وعاطفية يا "صوفيا"، ويجب عليك اختيار الرجل الذي يتوافق معك في الطبيعة .. وليس مجرد شخصية هشة وكئيبة .

* * *

وعند سماع هذا الكلام .. لم تستطع "صوفيا" احتمال أكثر من هذا .

– لقد تخطيت حدودك يا "كارل" .

– أنا أعرف السبب الذي يجعلك غاضبة بهذه الصورة ياسيدة "كارلتون" .. ذلك أن كلماتي تحمل الحقيقة التي ترفضين قبولها .. تصبحين على خير .. وأحلاماً سعيدة .

توجه "كارل" لفرش الأغطية .. بينما كانت "صوفيا" تنظر إليه والدموع في عينيها .. كم تكره هذا الرجل القاسي عديم الشفقة !

الفصل السادس

في الصباح، تناول "كارل" و"صوفيا" فطورهما في صمت قاتل ، ولم تكن "صوفيا" قد غفرت له ما قاله لها البارحة فيما يتعلق بـ "ديفيد" ، أما "كارل فلم يكف للحظة واحدة عن نظراته الساخرة لها .

وبدأ رحلتهما في نفس الصمت الكئيب، وكان يتقدمها ببضع خطوات في أثناء سيرهما، وعند الظهيرة كان "كارل" قد قرر وضع حد لهذه الكآبة التي تسيطر عليهما، فقال لها :

- "ما الذي تنوين عمله عند وصولك إلى "حجار" ؟

فأجابته بجفاف شديد :

- أنت تعرف ، سأتزوج "ديفيد" .

- نعم، فهمت ذلك، لقد قلته من قبل ! ولكني أسأل: ما الذي تنوين عمله هناك ؟ أظن أن "ديفيد" سيكون مشغولا من الصباح وحتى المساء . فكيف ستقضين يومك إذن أثناء غيابه ؟ ولا تنسي حاجز اللغة، فالسيدات هناك لايتحدثن إلا لغتهن الخاصة، وبذلك لن يكون هناك أي علاقة بينكن .

"ديفيد" ! مازال "كارل" يذكر "ديفيد" في حديثه ، ترى لماذا يهتم بحياتها المقبلة هناك ؟

- أهم شيء أنوي عمله هناك هو تعلم اللغة العربية، وعندما أجيدها تماماً أنوي مساعدة "ديفيد" في عمله .

- هل لك خبرة سابقة في مجال التدريس ؟ أو أي شهادات ؟

- الحقيقة .. لا، ولكن ..

- إذن لابد أنك تعرفين بعض المعلومات الطبية، التي تفيد في مجال الإسعافات ؟ ويمكنك في هذه الحالة المساعدة في حل مشاكل الوقاية والصحة هناك فيما يتعلق بالسكان .

"كم أكرهه"، كان هذا الإحساس يسيطر على "صوفيا"، فهي تعرف أنه يريد نصب فخ لها

– إنك لم تحصلي على أية شهادات في هذه المجالات، فكيف ستساعدين "ديفيد" إذن !

– لا شيء .. سأكتفي بكوني زوجته، لا أكثر .

وبعد هذا الحديث اللاذع، لم يوجه أحدهما كلمة للآخر طيلة النهار .

ولحسن الحظ، لم يظهر أي من رجال الشيخ في الأفق، وكانت "صوفيا" قد بدأت تشعر بالإرهاق، وقد رأت على البعد بعض معالم المدنية : أراضٍ زراعية تحيطها بعض الجدران العالية، بالإضافة إلى عدد من الجمال ، هكذا أصبحا الآن على مسافة من هذا العمران، ويتبقى لهما حوالي ساعة للوصول إليه، وكان هناك على جانبي الطريق الرئيسي المنازل المصنوعة من الطين الجاف، وفي قلب القرية الصغيرة كان هناك بعض الأبنية التي تدل على أنها بُنيت في العصر القديم، وتوقف "كارل" أمام بناء ضخم كتب عليه : "مركز الشرطة" .

وقال "كارل" :

– بما أنه يجب العثور على مكان للمبيت، لابد من الاستعلام هنا .

– نعم .. طعام ساخن وسرير حقيقي .. الجنة في النهاية !

وأخرج "كارل" من حقيبته جواز السفر والتأشيرة الخاصة به وقال :

– لابد أن تتسلحي بأوراقك الآن، فالشرطة لا تمزح هنا، ولا يمكن التحرك دون أوراقك الخاصة .

– أنا لا أجد أوراقي يا "كارل"، لقد اختفت !

– غير معقول ! هل أنت متأكدة ؟

– بالتأكيد، فقد كانت جميع أوراقي هنا في هذه الحافظة الجلدية .. ولا يوجد شيء، لابد أنها وقعت ..

آه يا "كارل"... ما الذي يمكنني عمله إذن ؟

وكانت "صوفيا" قد أجهشت بالبكاء، عندما قال "كارل" :

– لابد أنني سألجأ إلى أن أستخرج لك شهادة ميلاد جديدة ! ألا ترين أنك

جعلت حياتي صعبة جداً .. هيا يا "صوفيا"... جففي دموعك، لابد أن نفكر الآن للخروج من هذه الورطة .

– هل لديك فكرة ؟

– ليس بعد ، ولكن لابد من إيجاد حل سريع، وَإلا ... ولنبدأ الآن بالابتعاد عن هنا .. فلا داعي لجذب انتباه رجال الشرطة .

وجذبها إلى مكان خالٍ، وقال لها :

– سنصبح آمنين هنا ، فلنحل أمتعتنا .. ربما تكون حافظة أوراقك فيها .

– ليست موجودة، أنا متأكدة من ذلك، لقد فقدتها .

وأكد التفتيش مخاوفهما .. لقد تبخرت هذه الأوراق تماما، وقال "كارل" بشيء من الضيق :

– للأسف عندك حق .. المهم هو ..

– والقنصلية ...

– ماذا تقولين ؟ قنصلية هنا ؟! أفيقي من غفلتك يا "صوفيا" ! لا أخفي عليك أنك في محنة .. فالشرطة هنا قوية جداً وإذا لاحظ رجالها أنك دون أوراق ..

– إذن لابد أن نختفي قبل أن يرانا أحد .

– ولكنهم سيجدوننا آجلا أم عاجلا .. شخصان أوروبيان يسافران على جملين شيء ملحوظ جداً هنا وليس مألوفا .. وقد يكونون لاحظوا وجودنا .. وقد ينتظروننا في المدينة التالية أو التي تتلوها .. فلن نهرب منهم .

– ولكن لأي سبب يتحملون كل هذه المشقة ؟ ما الذي يهم من مسافرين مجهولين؟

– لابد أن تتعرفي على هذه القرية جيداً يا "صوفيا" ! لايمكن لأي غريب التجول بدون التراخيص اللازمة، فقد سمعت عن بقاء مجموعة من الأمريكيين في السجن لمدة شهرين كاملين .. ولم أحاول معرفة ما آل إليه مصيرهم بعد ذلك .

– وما الذي يمكنه أن يحدث لي في أسوأ الظروف ؟

– لا مفر من الترحيل ، صدقيني لن يتردد رجال الشرطة في ذلك، بعد فترة إقامة صغيرة وراء القضبان كنوع من التأديب .

– الترحيل ! بعد كل هذه المحن، وقد أصبحت الآن على مقربة من "ديفيد" ... والحق أن فكرة السجن تحت رحمة غرباء لأمر يخيفها جداً .

– غير ... غير معقول يا "كارل" !

– "صوفيا" .. أنت في وضع حرج !

– لقد فهمت ! دون أوراقي لابد من الرحيل إلى "إنجلترا" في أقرب فرصة.

– وأنت تعرفين تحت أي ظروف سيتم ذلك ؟

– لا .. لا .. أنا لا ..

– تخيلي لوقاموا بترحيلك في أول طائرة ؟

– لم أكن أتوقع ذلك ...

– سأقول لك ما الذي سيحدث .. أولا سيحتجزونك حتى يتموا ملفاً كاملاً لك، والله وحده يعلم الوقت الذي سيحتاج إليه هذا الأمر .. إنها مشكلة ..

واكفهر وجه "صوفيا"، لقد سمعت بمثل هذه القصص من قبل، كما سمعت عن تحقيقات الشرطة المحلية في هذه البلاد ، كما تكره إهمالها الغبي ! ما الذي يمكنها عمله الآن ؟

لقد فهمت الآن أن المخاطر أصبحت تحيطها .

– لابد أن تجد حلا يا "كارل" ! لابد من إيجاد حل من أجل الخروج من هذه الأزمة، سأفعل أي شيء من أجل تفادي السجن !

سيطر تفكير عميق على "كارل"، ثم استدار نحوها قائلا :

– حقيقة ستفعلين أي شيء ؟

– نعم ... أي شيء .

وبعد تردد طويل، قال "كارل" :

– هل توافقين على الزواج مني ؟

الفصل السابع

قالت صوفيا بعد أن استجمعت قواها :

– أنت .. أتزوجك ؟ هل الوقت يسمح لمثل هذا المزاح يا "كارل" !

– أنا لا أمزح، إنه الحل الوحيد أمامك الآن إذا أردت التخلص من هذا المصير الذي ينتظرك .

– ولكنه جنون .

– للأسف .. ولكن إذا كان لديك اقتراح أخر أنا على أتم استعداد لسماعه، هل تعتقدين أنني أرغبك كزوجة ؟

كانت "صوفيا" في حالة اضطراب لا تسمح لها بتكوين فكرة صحيحة، فقد كان اقتراح "كارل" مذهلاً للغاية ! ترى هل يأخذ هذا الاقتراح مأخذ الجد ؟

– إنه جنون ! كيف تتصور أنك تنقذني من ورطة عندما تعرض عليّ شيئاً كهذا؟ فما الذي يمكن أن يتغير بعد ذلك ؟

– ربما لا شيء أو كل شيء، فنحن لسنا في "إنجلترا"، هنا في الصحراء لا تعتبر السيدات كائنات مستقلة، فهن يتبعن أزواجهن في الأول وفي الآخر، وعندما تتزوجينني، تصبحين ملكي في نظر القانون، وأكون بذلك مسؤولا عنك مسؤولية تامة، وهكذا تصبح أوراقك لا أهمية لها .

– يالها من تقاليد ! وهل يمكن أن أذعن لك دون أدنى احتجاج ؟ لا تعتمد عليّ في لعب دور الزوجة الخاضعة .

– حتى لو وافقت على الزواج، فأنا لست متأكداً من أن هذا الزواج يمكن أن يتم دون هذه الأوراق الخاصة بك، ثم ...

– ولكنني سأتزوج "ديفيد"، وليس أنت !

– هل تعتقدين أنني أعرض عليك هذا الاقتراح عن طيب خاطر .. أنا سعيد وقانع جداً بكوني رجلاً عزباً

شعرت "صوفيا" كأنها تعيش في كابوس رهيب، وربما ستستيقظ منه الآن .

– و .. وما الذي سيحدث بعد إتمام الزواج ؟

– حسناً، أتمنى أنه يكون باستطاعتنا في هذه الحالة مغادرة القرية دون قلق .
– لا .. أريد أن أقول ... ماذا سيحدث بيننا ؟
ونظر إليها "كارل" بسخرية شديدة جعلتها تكتسي بحمرة الخجل، ثم قال :
– لن أجبرك على القيام بواجباتك الزوجية، إذا كان ذلك مايزعجك ! فبعد العودة إلى بلادنا يمكننا محاولة فسخ عقد الزواج، ويمكننا بالتأكيد الحصول عليه لوعرضنا ظروف زواجنا بالتفصيل .
– وسيكون باستطاعتي أن أتزوج "ديفيد" ؟
وأجابها "كارل" بعصبية واضحة :
– سيكون باستطاعتك الزواج من أي شخص مهما كان !

* * *

وأمسك "كارل" بزمام الجملين، وابتعد عنها في ضيق شديد .. شأنه شأن كل مرة تذكر "صوفيا" فيها اسم "ديفيد" في الحديث .
وصرخت "صوفيا" بينما بدأت تجري وراءه :
– انتظرني ! إلى أين ستذهب الآن ؟
فأشار إليها برأسه نحو مبنى يبدو عليه التواضع، يقع في أحد أركان الحي .
– هل ترين هذا المبنى ؟ على الرغم من أن منظره لا يعني أي شيء، فهو كنيسة، لقد خطرت في بالي فكرة الزواج عندما رأيتها، فلو كان بها قس الآن، سنحاول إقناعه بضرورة زواجنا .
وقالت "صوفيا" لنفسها في غضب "يالها من جرأة"، ولم يكن "كارل" يشك للحظة واحدة في موافقتها على هذا المشروع ! والحق أنه لم يكن مخطئاً ... فالحل الوحيد الذي يتبقى الآن هو أن يلقي رجال الشرطة القبض عليها، وفي هذه الحالة كانت "صوفيا" واثقة أن "كارل" لن يفجع بشأنها .
وعلى كل حال ، فقصة هذا الزواج لن تربطها به ، بل هي مجرد وسيلة لإنقاذها ، كما أن هذا الرباط سيكون مؤقتاً ، ويمكن إلغاؤه بسهولة .
داخل الكنيسة، كان مظهر الهيكل يبدو مهملاً جداً، ومن الواضح إذن أن سكان هذه القرية لا يهتمون بعمل قداس يوم الأحد .. وتأملت "صوفيا" الكراسي

المصفوفة والرجل الذي استقبلهما والذي يبعد مظهره كل البعد عن مظهر القس، وهمست "صوفيا" في أذن "كارل" :
– هل هذا الرجل هو الذي يقوم بالخدمة الدينية هنا ؟
– أعتقد ذلك .
– أليس ... يبدو غريباً ؟
ولم تسنح الفرصة لـ"كارل" للإجابة عليها، فقد كان الرجل الغريب قد اقترب منهما، وقال لهما بصوت قوي وبابتسامة عريضة ،
– أنا الأب "دونوجو"، مرحباً بكما في كنيستنا المتواضعة؛ فإنني سعيد جداً بلقاء شخصين مؤمنين مثلكما .
– للأسف نحن مجرد مسافرين نرغب الزواج .
دهش الأب "دونوجو" قليلاً لسماع هذا الحديث، ومع ذلك لم يوجه لهما أي تعليق ويبدو أن وجه "كارل" الجامد لم يترك له هذه الفرصة .
– سيسعدني ذلك يا طفليّ، فقد مضى وقت طويل لم يتزوج أحد في هذه الكنيسة ! وطبيعي جداً أن نتأكد أولاً أن جميع الإجراءات كاملة ...
وانتحى "كارل" بالرجل جانباً، وقال له :
– الحقيقة أننا كنا في عجلة من أمرنا .. ألا ترى معي ياسيدي أن كنيستكم هذه في حاجة إلى بعض الترميمات .. فما رأيك في منحة صغيرة و ..
وانتهى بقية الحديث بهمسات من قبل "كارل" في أذن الرجل ، ورأت "صوفيا" "كارل" وهو يخرج حافظة نقوده تحت عيني الرجل المهتمتين .. وعلى الفور أخذ الرجل المبلغ وأخفاه بين طيات ملابسه .
ثم لحق "كارل" بـ "صوفيا" وهمس في أذنها :
– لقد وافق الأب، وسيتم الزواج الآن .. ابتسمي إذن يا "صوفيا" حتى يبدو عليك مظهر العروس السعيدة ! وإلا ما الذي سيخطر على بال الأب "دونوجو" ؟ هيا قبليني الآن .

* * *

وتجمدت "صوفيا" في مكانها، فقد كانت الأحداث تسير على غير هواها، وبعد

فترة انتظار، أمسك "كارل" بكتفيها وجذبها نحوه، وقد أثارت هذه القبلة لدى "صوفيا" شعوراً عنيفا يفوق المرة السابقة، وكانت في هذه اللحظة تضع يديها على صدر "كارل" فأحست بضربات قلبه سريعة .. وخلال لحظة، نسيت "صوفيا" العالم كله من حولها، ولم تعد إلى الواقع إلا بعد سماع سعال ضعيف من الأب "دونوجو" الذي كان ينظر إليهما بتسامح، واستدارت "صوفيا" نحو الرجل في ضيق .. آه لوكان يعرف الأمر ..

– لقد قررتما الزواج في الحال ؟ فهل أسألكما إذا كنتما قد فكرتما في أمر خاتم الزواج ؟

ونظرت إليه "صوفيا" دهشة، فلم يكونا قد فكرا في هذه التفاصيل !

ثم أضاف الأب "دونوجو" :

– لا أهمية لذلك .. لو انتظرتما هنا قليلا، سأحضرلكما ما أنتما في حاجة إليه.. ولا داعي للشكر، فسنسوي حسابنا بعد ذلك .

وأسرع الرجل بالخروج من الكنيسة، ونظرت "صوفيا" نحو "كارل"، وقالت له :

– ألا ترى معي أنه رجل فضولي .

– إن الأمر سيان بالنسبة لي مادام قد قبل تزويجنا .. هل تتذكرين سبب هذا الاحتفال يا "صوفيا" ..

– إنه تحت الضغط ..

وقاطعها "كارل" قائلا :

– لك مطلق الحرية في رفض ذلك .. كلمة واحدة وسيتم إلغاء كل شيء .

كلمة واحدة .. لو كانت فقط تستطيع النطق بهذه الكلمة !

ولكنها تخاف .. وتخاف بشدة .. على كل حال .. فهو زواج مؤقت .. وسيتم إلغاء كل ذلك من ذاكرتها بعد عدة أسابيع .. ولم يساعدها هذا التفكير في الشعور بالاطمئنان، فقد شعرت بالرعشة تسري في جميع أجزاء جسدها بمجرد رؤية الأب "دونوجو" عائداً وهو يمسك بخاتم الزواج وقال الأب في رضا:

– إنه من الذهب ياطفليّ .. والآن لنبدأ ..

رددا معا الجمل المعتادة، وكان صوت "صوفيا" مجرد همس، وكاد الأب ينحني

نحوها ليسمع إجابتها بـ "نعم" ..

اعتقد الرجل أن ذلك الأمر يرجع لشدة انفعالها، ولم يكن يعلم مدى الخوف الذي عقد لسانها ..

وكم كانت "صوفيا" تحلم بهذا الاحتفال بطريقة أخرى مختلفة تماما .. فقد كانت دائما تتخيل نفسها في ذراع "ديفيد" وهي تتقدم نحو الهيكل .. وأفاقت "صوفيا" من أحلامها على صوت الأب "دونوجو" :

– لنملأ عقد الزواج .

عقد الزواج .. إن الأمر أصبح حقيقة .. ورمت "صوفيا" "كارل" بنظرة خاطفة، وكان – كما هو – يحتفظ بنفس الوجه الجامد .. حقيقة، لايوجد أي شيء يمكنه أن يغير من طبيعة هذا الرجل .

ولم يتبق بعد ذلك إلا توقيع عقد الزواج، وعند باب الكنيسة هنأ الأب "دونوجو" الزوجين الحديثين، وكانت الشمس قد بدأت في الغروب .

– لقد تأخر الوقت كثيراً لمواصلة الطريق الآن، هل تعرفان مكانا للمبيت فيه هذه الليلة؟

أجابه "كارل" :

– كلا ... ليس بعد .

– إنني أمتلك حجرة خالية .. ولو كنتما بحاجة إليها، فأنا أعرضها عليكما .

– إنه شيء لطيف جداً منك، ولقد سعدت أنا و زوجتي بقبول هذا العرض.

– إذن اتبعاني .

وخلال الطريق كان كل واحد منهما يحمل أمتعته، وقال الأب "دونوجو" :

– الحجرة هنا في الدور الأول .. أظن أنكما بحاجة إلى البقاء معا الآن ..

وشعرت "صوفيا" بالخجل أمام هذا التلميح، وأضاف الأب :

– آه ! لاتضطربي ياسيدتي .. فأنا – بحكم عملي – أجهل الكثير عن طبيعة الحياة الإنسانية .. والآن سأترككما، وتأكدا أن أحداً لن يزعجكما حتى الصباح، كانت الحجرة تحتوي على "كومودينو" قديم، وكرسي، وسرير كبير .

قال "كارل" بسخرية :

– على كل حال فإن السرير واسع جداً، ويسمح لزوجين حديثين بالنوم فيه ..
وكانت "صوفيا" تشعر بالاضطراب بعد هذه الأحداث المتلاحقة فقالت :
– احتفظ بهذه الفكرة لنفسك !
– هل تتصنعين الحياء يا "صوفيا" ؟ كم يدهشني ذلك ..
أنني أهوى الكشف عن المرأة القوية التي تختفي بداخلك .. ولا داعي لأن تنكري ذلك .
وينظر إليها نظرة استفزازية، ثم ركز عينيه على شفتيها، ولم تستطع "صوفيا" أن تتحرك في هذه اللحظة. فـ "كارل" بالنسبة لها رجل غريب .. كما أنه يجسد الرجولة بكل معنى الكلمة، ولديه تجربة تجذبها وتخيفها في آن واحد، وأجابته بصوت مرتعش :
– وماذا يهمك في معرفة ذلك ؟ إننا لا ننوي استغلال هذا الزواج .
– نعم يا "صوفيا"، فإن هذا من أهم النقاط التي اتفقنا عليها .
وأخرج "كارل" بقية الشيكات السياحية التي يحتفظ بها في حافظة نقوده. ثم قال باختصار شديد :
– سأذهب لأدفع للأب "دونوجو" ثمن خاتم الزواج .
– لابد أن نقتسم ثمنه ...
– كلا ! ولا مجال للحديث في هذا !
خرج "كارل" من الحجرة مسرعا، وفكرت "صوفيا" أن هذا الرجل يستطيع أن يبدو كريها بصورة رهيبة عندما يريد !
ثم بدأت تهيىء نفسها وتستعد للنوم مستغلة فترة غيابه، وبحثت مسرعة في حاجياتها، وأخيرا وجدت "بيجاما" من القطن تبدو مريحة جداً .
والحقيقة أن هذه البيجاما لم تكن جذابة .. هذا ما فكرت فيه "صوفيا" وهي تمسك بها، ثم ركزت عينيها على اللفافة التي أخرجتها من الحقيبة، وكانت تحتوي على الأشياء التي قامت بشرائها في آخر لحظة .. ملاءة سرير من الحرير المطرز بالدانتيل وقميص نوم شفاف .. ولم تستطع "صوفيا" مقاومة هذه الأشياء عندما رأتها .. هل تتجرأ وترتدي هذا القميص ؟ كلا .. لن تفعل

ذلك أبدا .
ثم وضعت البيجاما في الحقيبة مع اللفافة الثانية، ثم أخرجت قميصا آخر يبدو مريحا أيضا .
وعندما شعرت بملمس الحرير على جسمها، تنفست الصعداء .. وكانت تشبه في هذا الرداء إحدى بطلات ألف ليلة وليلة . والحقيقة أن الملابس تغير كثيراً من شكل الإنسان، فكم تشعر "صوفيا" الآن بأنوثتها، وقدرتها على مواجهة الصعاب .. ثم نهضت لتمشط شعرها الأسود وتركته مهدلاً على كتفيها، وتمتمت قائلة :
"احترس الآن ياسيد "كينجسلي" .. أنت الذي تبدو دائما مسيطراً على نفسك، سنرى ما الذي يمكنك عمله الآن ؟" .
وجلست "صوفيا" على الفراش بطريقة جذابة جداً .. وكانت مستعدة الآن .. ثم بدأت دقات قلبها تسرع عندما سمعت صوت وقع أقدام في الممر المؤدي إلى الحجرة، وعندما فتح "كارل" الباب ، نظرت إليه بطرف عينيها .. ولكن دون جدوى، فقد جلس "كارل" على حافة الفراش ثم اكتفى بنزع حذائه وقميصه .
ثم قال لها فجأة :
– أليس لديك شيء ترتدينه هذه الليلة ؟ إن الجو بارد جداً ..
وفكرت "صوفيا" إلى أي مدى يبدو هذا الرجل غير محتمل، فجذبت الغطاء عليها بعصبية حتى ذقنها ثم استدارت نحو الحائط، وسألته بجفاف :
– لا أظن أنك لطيف بالدرجة التي تجعلك تدعني أنام بمفردي على الفراش .
– هل أنام على الكرسي ؟ إنه صغير جداً بالنسبة لي ! لماذا هذا السؤال يا "صوفيا" ؟ هل هذه هي المرة الأولى التي نتقاسم فيها الفراش معا ؟
– ليس هذا سبباً !
– ماذا بك يا "صوفيا" ؟ هل تشكين في أنني أنوي إبلاغ "ديفيد" بعدد المرات التي نمنا فيها معا في نفس الفراش ؟
– كلا بالتأكيد ! فـ "ديفيد" رجل متفهم وعاقل ، وأنا أعرف أنه سيقدر ذلك .
– يالمسكينة .. فأنت مضطرة لقضاء بقية عمرك بجانب رجل عاقل .. كيف

ستعيشين إذن بعد رحيلي ياسيدتي ؟

واتجهت "صوفيا" غاضبة نحو حافة الفراش حتى تبتعد عنه، وتمتمت قائلة :

– إنني مرهقة .. من فضلك كف عن ملاحظاتك الساخرة .. وشعرت "صوفيا" بعد ذلك به ينام بجانبها، وكانت تسمع صوت أنفاسه وهو ينام .

واستيقظت "صوفيا"، والدنيا ظلام، وكان الجو بارداً جداً؛ فالمناخ في هذه الصحراء قاري .. حرارة مرتفعة أثناء النهار، يعقبها برد شديد أثناء الليل، وهكذا شعرت "صوفيا" بشيء ما يؤرقها، وسرعان ما عرفت السبب عندما وجدت نفسها في منتصف الفراش بالقرب من "كارل"، ثم وجدت يدها موضوعة على جسم "كارل"، ترى ما الذي يمكنها عمله الآن ؟ لابد من الابتعاد عنه فوراً ! ولكنها عجزت عن ذلك تماما، كما أنها تشعر بإحساس غريب يجعلها غير قادرة على البعد عنه .. وكم كان هذا الإحساس رائعا !

بالإضافة إلى أنه سيستيقظ لو حاولت "صوفيا" التحرك والابتعاد عنه .. وأغمضت عينيها وحاولت النوم .. ولكن دون جدوى .

وفجأة تحرك "كارل"، فقفزت "صوفيا" من مكانها كما لو أنها تلقت صدمة، وهمس "كارل" في أذنها :

– هل ستمثلين النوم هكذا طويلا ؟ أشعر باضطرابك منذ أكثر من نصف ساعة.

– وأنت .. ؟ منذ متى وأنت مستيقظ ؟

– أنا ؟ منذ أن دخلت الفراش .. هل تظنين أنني يمكنني النوم بعد رؤيتك هكذا؟

– كنت .. كنت غاضبة منك .. وكنت أحاول الانتقام منك .. ... إنه ليس أمراً طيباً .. ولكن ..

– اطمئني لقد حققت أمنيتك .. وبفضلك لم أستطع النوم طوال الليل .. هل يرضيك ذلك ؟

– آه .. نعم .. لا ..

وفجأة شعرت "صوفيا" أن مثل هذا التصرف قد يجر عليها مشاكل كثيرة هي في غنى عنها، كما أن "كارل" كان يبدو في شدة الغضب .

ثم قال لها بصوت أجش :

– هذا ما كنت ترغبينه يا "صوفيا" ؟ خبريني ..

ووضع يده على رقبتها وبدأ يتحسسها، ثم اقترب منها وأمعن النظر في وجهها ثم ركز نظره على فمها، وهمس في أذنها :

– هل ترغبين فيَّ ؟

كان ضوء القمر يرسل بأشعته في الحجرة، وكان الجو يبدو حالما حولهما .. وكانت "صوفيا" تسيطر على نفسها بصعوبة، وأحست أن شيئاً ما سيحدث بينهما، ورفع "كارل" الغطاء عنها وأخذ يتأملها والرغبة تشع من عينيه.

– سيدتي .. منذ أن رأيتك لأول مرة وأنا أشعر برغبة شديدة إليك .. وهذه الليلة لم أستطع أن أتماسك، أعطيني يدك ودعيني أكون دليلك في هذا العالم الجديد الذي تجهلينه .. هل ترغبين في ذلك يا "صوفيا" ؟

أحست "صوفيا" أنها تحلم عندما سمعت صوته القوي، ياله من حلم رائع .. وانحنى "كارل" نحوها ووضع شفتيه على شفتيها ثم رقبتها، وغمرها بقبلاته الرقيقة، ثم همس في أذنها :

– لقد اخترت الوقت جيداً يا "صوفيا" .. إن ملابسك هذه تجعل المتعبد يتخلى عن تحفظه .. إنك تشبهين الحوريات وشعرك الأسود يحيط وجهك ..

واقترب منها كثيراً وأخذ يبعد كتفي الرداء من على جسدها برقة .. وكانت "صوفيا" تساعده في ذلك .

– كم أنت رائعة يا سيدتي .. كم أرغبك بشدة جعلتني أفقد رشدي .

واحتضنها بشدة، وكانت "صوفيا" مستسلمة، نعم .. إنها ترغب هذا الرجل .. ترغبه بكل قوتها ..

– تعال يا "كارل" ...

– يازوجتي الرقيقة ..

وشعرت "صوفيا" بعد سماع هذه الكلمات بأنها تلقت صفعة على وجهها .. ما الذي تنوي عمله الآن ؟

إنها خيانة ! تخدع "ديفيد" .. تخذله .. والأسوأ من ذلك أنها تتمنى هذه الخيانة

بل وترغبها. تمنح نفسها لـ "كارل" .. إنها تتمناه بشدة .. وشعرت فجأة بالخزي يسيطر عليها .

لقد وعدت "ديفيد" بالحب الخالد .. ياللعبة القدر القاسية !

لقد وضع "كارل" في طريقها. قالت بألم :

– ولكنني لست زوجتك يا "كارل"

وأجابها "كارل" بصوت مرتعش :

– "صوفيا" .. أنت زوجتي .. افتحي عينيك وانظري إليّ .

وكانت "صوفيا" تشعر باضطراب شديد عندما تنظر إلى عينيه الزرقاوين، ثم استطرد قائلا :

– حتى ولو كانت هـذه الفكرة تخيفك .. فأنت زوجتي شرعاً .. أنت ملكي يا "صوفيا"

شعرت فجأة باليأس يعتريها .. كيف وصلت إلى هذه الدرجة ؟ كم ترغب هذا الرجل، ولكنها تنتمي إلى شخص آخر .. فهل يمكنها نسيانه ؟

وصرحت "صوفيا" له قائلة :

– إنني ملك "ديفيد" .

وهنا اكفهر وجه "كارل" وقال لها مهددا :

– كم أنت حقيرة ! تمزحين بإثارة رجل، ثم ترفضينه بعد ذلك، كلا !

وأخاف غضبه "صوفيا" كثيراً .. ونظرت إليه بعينين واسعتين لشدة رعبها :

– ولكن "كارل" أنت لن .. ؟

– لن يكون ذلك بالقوة .. ولو أنك تستحقين هذه المعاملة، ولكنني لا أرغبك ولن أرغب مثل هذا بالقوة أبداً ..

ثم ابتعد عنها فجأة وقفز من الفراش ، وقالت له "صوفيا" بصوت مرتعش :

– هل ستذهب ؟

– ليس بعيداً، لا داعي للقلق .. فلن أقوى على ترك زوجتي في ليلة عرسها، أليس كذلك ؟ ما الذي يقوله الأب "دونوجو" إذا علم أنني اختفيت في ليلة الزفاف ؟

وقطع "كارل" الحجرة ذهابا وإيابا لمدة دقائق، ثم جلس على الكرسي المصنوع من القش .. وتأمل السماء عبر النافذة .

وحاولت "صوفيا" أن تنسى ماحدث ، ولكن كيف لها ذلك وهي تراه يجلس أمامها كالتمثال وباتت "صوفيا" ضحية صراع داخلي لا تجد له حلاً .

وبدا الليل دون نهاية .. وكان جو من التوتر يسود الحجرة، وعند الفجر شعرت "صوفيا" بالألم يعتصر رأسها، ولكنها ظلت في مكانها متحاشية نظرة "كارل" لها . ثم شعرت به يتحرك في الحجرة، فنظرت إليه بطرف عينها، وفجأة – كأنه يعرف أنها مستيقظة – استدار نحوها وقال لها بصرامة :

– هيا انهضي وارتدي ملابسك .

– ولكن الوقت مازال مبكراً .

– لابد من الرحيل في أسرع وقت ممكن .. لن أحتمل الانتظار في هذا المكان طويلا.

– وإلى .. وإلى أين سنذهب ؟

وانتظر دقيقة قبل أن يجيبها :

– سأصحبك حتى "حجار" يا "صوفيا" ، أليس هذا ما تريدينه ؟

أغمضت "صوفيا" عينيها .. فمازال لقاء "ديفيد" هو أغلى أمنية عندها .. ولكن بعد هذه الليلة .. تغير الكثير .. فأصبحت غير قادرة على تحقيق ما تتمناه.

وأجابته :

– نعم، أريد الوصول بسرعة إلى "حجار" .

نظر إليها "كارل" بطريقة غريبة .. وكأنه يتشكك في قولها .. ومع ذلك لم تعكس ملامحه سوى اللامبالاة .

واستغلت "صوفيا" فرصة أنه يجلس موليا ظهره لها ، ونزلت بسرعة من السرير وارتدت ملابسها ، ومشطت شعرها .. كم تكره هذا اللون الأسود الآن ..

وحتى تتحاشى رؤيته، قامت بشده إلى الوراء في ضفيرة .

العودة إلى "إنجلترا" لدى أسرتها ؟ كم تتمنى ذلك الآن، ولكن على الرغم من حنان أبويها إلا أنها كانت قد انفصلت عنهما في الفترة الأخيرة .. لقد

أصبحت "صوفيا" فتاة ناضجة، ويجب أن تكون قوية، لا ضعيفة كما تشعر الآن.

غادرا المنزل معا في الصباح الباكر، و بينما كان "كارل" يعد الجملين، سألته "صوفيا":

– ألا نودع الأب "نونوجو" ؟

– لا أظن أنه سيقدر أننا سنوقظه في هذا الوقت من الصباح .

ونظرت "صوفيا" لآخر مرة إلى الشارع المترب والمنازل الطينية، وارتعشت .

– كم أتألم من أجل هذا الرجل ، فالحياة هنا قاسية جداً ! هيا نرحل بسرعة .

وسارا معا نحو "حجار" وقالت صوفيا" لنفسها :

كم أنا سعيدة الآن .. فأنا أقترب من هدفي .. ولكن .. لماذا هذا الحزن الذي يسيطر علي ؟

وجففت دموعها بينما كانت تنظر إلى "كارل" الذي يسير أمامها، وقالت :

– عندما أقابل "ديفيد" سيكون كل شيء على ما يرام .

ولكنها كانت تخاف من هذا الإحساس الذي يسيطر عليها، ويجعلها تشعر أن لا شيء سيكون على مايرام أبداً .

الفصل الثامن

وكان أمامهما للوصول إلى "حجار" مدة أربعة أيام .. أربعة أيام ستفعل الكثير في ذاكرة "صوفيا" وكان الطريق صعبا وطويلا، الحرارة شديدة .. مما جعلهما يسافران دائما في الصباح، وعند الظهيرة، يجلسان تحت ظل شجرة .

وفي اليوم الثالث، كان عليهما مواجهة "الهبوب"، وهي رياح عاتية تأتي من جهة الشمال فتثير زوبعة رهيبة من الرمال ولجأ "كارل" و"صوفيا" للاحتماء من هذه الرياح بتغطية نفسيهما جيداً حتى لا يصابا بالاختناق. والحقيقة أن كل دقيقة تقضيها "صوفيا" في هذا الانتظار بجانب رفيقها تجعلها تتذكر هذه الذكريات التي تتمنى نسيانها، أما بالنسبة لـ"كارل"، فكان من المستحيل تخمين أي شيء يفكر فيه. فقد كان وجهه جامداً ولم يكن يوجه الحديث إلى "صوفيا" إلا عند اللزوم فقط .

وهبط عليهما الليل بينما كانت الرياح لاتزال شديدة وكانت "صوفيا" لاتزال تخاف من "كارل" ومع ذلك فهي في شدة الحاجة إليه حتى تصل إلى "حجار" و"ديفيد"، فهي تستمد منه قوتها وجرأتها لمواصلة الرحلة على الرغم من الخوف والألم اللذين يسيطران عليها بمجرد وجودها بالقرب منه. وبينما كانا يقتربان من "حجار" كانت "صوفيا" تشعر بالقلق يقترب منها، لماذا هذا القلق إذن ؟ ياله من أمر مضحك فهي الآن على وشك الوصول إلى "ديفيد" فلا داعي إذن لكل هذه العصبية .

وكانت "حجار" تبدو مدينة صغيرة ذات شوارع ترابية ومنازل مصنوعة من الطين الجاف والجمال التي تسير في قوافل محملة بالخشب والصمغ العربي .. وهكذا تبدو الحركة كثيرة في "حجار" .

وتوقف "كارل" أكثر من مرة ليتأكد من الطريق، وعندما سأل للمرة الثالثة، بدا أن المتحدث يعرف "ديفيد" فأخذ يتحدث إليهما باللغة العربية، وقال "كارل" لرفيقته: – "لقد وصلنا .. فمنزل "ديفيد" على مقربة من هنا ".

وشعرت "صوفيا" بالحزن يعقد لسانها حتى كادت تفر هاربة، وهكذا سارت خلف "كارل" وهي تشعر بأنها أصبحت ضحية خوف لا معنى له .
وتوقفا أخيرا أمام مبنى يبدو أكبر من المباني المحيطة به، فقال "كارل" :
– لابد أنه هنا، فالمبنى تنطبق عليه الأوصاف التي ذكرها أهل المنطقة .
ووضعت "صوفيا" قدمها على الأرض ولكنها لم تقو على التقدم نحو الباب ، وقالت لـ "كارل" :
– هل سنفترق هنا يا "كارل" ؟
– لحظة ! لقد نسيت شيئاً مهماً يجب تسويته قبل لقاء "ديفيد" .
ونظرت "صوفيا" إلى خاتم الزواج الذهبي الذي يلمع في إصبعها :
– إلغاء الزواج ..
– بالضبط ، يجب العثور على حل قبل رحيلي .
– أي ... أي حل ؟
– بالضبط ، سنتحدث في ذلك فيما بعد .. والآن أظن أنك تودين لقاء خطيبك العزيز بأسرع ما يمكن .
– آه .. نعم، نعم .. بالتأكيد .
وتقدمت عدة خطوات، ثم استدارت وقالت له :
– ألن .. ألن تدخل معي ؟
– ليس هذا من الذوق ، أليس كذلك ؟ سأذهب لإطعام الجملين .. إلى اللقاء .
– "كارل" ، أنا ...
وماتت الكلمات على شفتي "صوفيا"، فـ "كارل" كان قد ابتعد ، والآن ماذا تخاف ؟ وأحست أنه تركها في يد رجل غريب عنها ..
وجاهدت "صوفيا" في تهدئة نفسها، ثم طرقت الباب بعد لحظة تردد .
وانفتح الباب .. ولكن لم يكن "ديفيد" .. إنما سيدة عربية ذات عينين سوداوين تنظر إليها بفضول .
وسألتها "صوفيا" باللغة العربية :
– هل السيد "ستاتون" – "ديفيد ستاتون" يسكن هنا ؟

وقالت لها الفتاة باللغة الإنجليزية دون أن تبتسم :
– إنني أتحدث الإنجليزية .
– حظ رائع .. أخشى أن أكون أخطأت المنزل .. هل تعرفين شخصا يدعى "ديفيد ستاتون" ؟
– نعم، إنه يسكن هنا .. وهو الذي علمني الإنجليزية، واسمي "سارة" .
وتأملت "صوفيا" الفتاة باهتمام .. فقد كانت رائعة الجمال .. ولم يكن يزيد عمرها على سبعة عشر عاما .
– هل تسكنين هنا يا "سارة" ؟
وصدم السؤال الفتاة فقالت :
– كلا بالتأكيد .. إنني أحضر هنا طوال النهار لإعداد الطعام لـ "ديفيد" وللاهتمام بشؤون المنزل .
وكانت الفتاة تنطق اسم "ديفيد" بأسلوب ساحر، بينما كانت عيناها تبتسمان عند نطق الاسم، وقبل أن توجه "صوفيا" إليها الحديث ثانية، سمعت صوتاً مألوفاً من الداخل يقول :
– من هنا يا "سارة" ؟
وزادت دقات قلب "صوفيا" .. إنه الرجل الذي عبرت نصف العالم من أجله .. ها هو الآن بالقرب منها، وأجابته "سارة" :
– إنها سيدة تسأل عنك يا "ديفيد" .
وظهر وراءها خلال هذه اللحظة رجل متوسط الطول، فنظرت إليه "صوفيا" كالتائهة .. فرأت رجلا يبتسم بتكلف وكانت عيناه زرقاوين ولكنهما يختلفان عن ... ولكنها تماسكت، فقد قررت من قبل عدم عقد مقارنة أبداً بين الرجلين .
– صباح الخير يا "ديفيد" .
– صباح الخير يا آنسة .. هل أتشرف بمعرفتك ؟
وفوجئت "صوفيا" بهذا السؤال .. ترى هل هذا مزحة ؟ لا، لايبدو أنه يمزح، وفهمت "صوفيا" الوضع، إن "ديفيد" لم يتعرف عليها بسبب لون شعرها والملابس العربية التي ترتديها .. هل اختلف شكلها إلى هذا الحد .

– إنه أنا يا "ديفيد" .. أنا "صوفيا" ..

ونظر إليها "ديفيد" محملقا، ثم سألها غير مصدق :

– "صوفيا" ؟ ياربي ، "صوفيا" أنت ؟ أنت هنا ؟

وشعرك .. شعرك الجميل ! شيء رهيب، ما الذي حدث لك ؟

وابتسمت "صوفيا" :

– إنها قصة طويلة ، هل يمكنني الدخول ؟

– بالتأكيد، تفضلي .. "سارة" هل يمكنك إعداد الشاي ؟

واصطحب "ديفيد" "صوفيا" إلى الحجرة ودعاها للجلوس على أريكة منخفضة، والحقيقة أنه لم يتخلص بعد من المفاجأة، ثم قال لها بأسلوب معتذر :

– إنك آخر انسان انتظره هنا !

– لقد يئست من الوصول إلى هنا ولحسن الحظ تقابلت مع شخص وافق على اصطحابي إلى هنا .

– أشكر الله، لقد عثرت على دليل ممتاز، فالصحراء حافلة بالمخاطر خاصة بالنسبة لامرأة تسافر وحيدة .. أشعر بالرعب عندما أتخيل ما كان يمكن أن يحدث لك ! ..

– بالمناسبة، يجب أن أشرح لك .. إن الرجل الذي اصطحبني إلى هنا هو ...

– لقد حضر الشاي، أشكرك يا "سارة" .

* * *

وكادت "صوفيا" تبتسم ، لقد كان "ديفيد" مخلصاً جداً لعاداته ومبادئه .. حتى هنا في قلب الصحراء لم يكف عن تناول الشاي البريطاني !

وبينما كانت "صوفيا" تشرب الشاي الأخضر المعطر شعرت أن "ديفيد" ينظر إليها، وعندما رفعت عينيها نحوه، استدار بسرعة .

وقال لها بعد فترة من الصمت :

– معذرة .. لم أعتد على رؤيتك بهذا الشعر الأسود ! يالها من فكرة غريبة جعلتك تصبغين شعرك بهذا اللون البشع !

– لقد اضطرتني الأحداث لذلك .. لقد اختطفني شيخ قبيلة في الطريق وكان

يريد .. لم أكن أستطيع النجاة من شروره إلا بمساعدة "كارل"، إنه هوصاحب فكرة الصباغة، لقد سمح لنا ذلك بالهروب من رجال الشيخ الذين يتعقبوننا و ..

– "كارل" ؟ من "كارل" ؟

– إنه الرجل الذي اصطحبني إلى هنا .

– كيف ذلك ؟ .. ألم يكن دليلك رجلا عربيا ..

– حسناً .. لا، لقد بدأت رحلتي مع بعض حداة الإبل، ثم أصبت بعد ذلك بالحمى، فتركوني مع "كارل" .

– ولكن من هذا الـ "كارل" ؟ وماذا يفعل هنا في هذه المنطقة من العالم ؟ إن وجود رجل أوروبي هنا لأمر نادر .

وعجزت "صوفيا" عن الإجابة، فهي لاتعرف شيئاً عنه، "كارل" .. هذا المغامر ذو الماضي الغامض الذي يحتفظ بأسراره لنفسه فقط .

– اسمه "كارل كينجسلي"، وينوي الذهاب إلى "مصر" على ما أظن، ولقد وافق على توصيلي إلى هنا في "حجار" قبل الذهاب في طريقه .

– ياله من اختلاف كبير بين الطريقين !

وتنهدت "صوفيا" وقالت :

– ولمعرفة بقية الأحداث .. يجب أن أخبرك أنني تعرضت منذ عدة أيام إلى محنة، فقد فقدت جميع الأوراق التي تثبت شخصيتي ..

– آه ! إن الشرطة المحلية حازمة جداً في هذا الشأن ؟ وماذا فعلت إذن ؟ فأنا أرى أنك حصلت على نسخة ثانية في وقت قصير .

وشعرت "صوفيا" أنه قد آن الأوان لإخباره بالأمر ..

– لا الحقيقة أنني لم أحصل على نسخة من أوراقي .. كما أنني كنت أعلم مدى الخطورة التي تواجهني في هذه الحالة .. وكان عليّ البحث عن شخص يقبل تحمل مسؤوليتي ...

ونظر "ديفيد" إليها بريبة :

– لا يوجد سوى شخص في هذه البلاد يمكنه تحمل مسؤولية المرأة بطريقة قانونية .. وهو الزوج .

– نعم .. هذا حقيقي .. ولذلك تزوجت .

واكفهر وجه "ديفيد" وشعرت "صوفيا" بانقباض عندما رأت هذا التعبير على وجهه، لماذا تصرفت بهذه الطريقة .. لماذا ؟

وردد "ديفيد" بصعوبة :

– تزوجت ؟ تزوجت يا "صوفيا" ؟

– كان هذا الحل الوحيد يا "ديفيد" وإلا كانوا سيرحلونني .

– ولكننا .. مخطوبان يا "صوفيا" .. وكنا سنتزوج فور عودتي إلى "إنجلترا" .

– أعرف ذلك يا "ديفيد" .. أعرف ذلك ولكنني لم أملك الخيار . ولم أتوصل إلى هذا الحل عن طيب خاطر .

ثم ساد صمت رهيب قطعه "ديفيد" قائلا :

– أنا لا أفهمك .. كانوا سيرحلونك، وليكن، ما المأساة هنا ؟ ستعودين إلى "إنجلترا" وتنتظرينني هناك حتىنتزوج في العام المقبل كما سبق واتفقنا .

– لقد نسيت شيئاً مهما .. قبل الترحيل، كنت سأمضي عدة أسابيع في السجن وأنت تعرف البلد جيداً حتى تتخيل ما الذي كان سيحدث لي يا "ديفيد"

– لنقل إن هذا سيحدث .. إن زواجك ليس بالأمر السهل بل هو أمر صعب ، أليس كذلك ؟

وشعرت "صوفيا" بالألم لرؤية "ديفيد" هكذا، كيف تسببت في مثل هذا الحزن لهذا الرجل المستقيم والحنون ؟ لقد قطعت على نفسها عهداً بألا تسبب له أي ألم .

– "ديفيد" إن تصرفي يبدو مجنونا ولكن تخيل نفسك مكاني .. لقد شعرت بخوف شديد في كل لحظة أتخيل نفسي فيها وراء القضبان .

ودخلت "سارة" عليهما لتقطع حديثهما قائلة .

– هناك شخص ينتظر بالخارج يدعى "كارل كينجسلي" .

– أهو الرجل الذي أتى بك إلى هنا يا "صوفيا" ؟ دعيه يدخل يا "سارة" .

وجمدت "صوفيا" في مكانها بمجرد دخول "كارل" في الحجرة، ونهض "ديفيد" لمقابلته، ووقف الرجلان في مواجهة بعضهما .. المغامر والمثالي ..

وصافح "ديفيد" "كارل" الذي رمى "صوفيا" بنظرة خاطفة .

– أعتقد أن الآنسة "كارلتون" قد أخبرتك بما حدث ؟

– حقيقة لقد أخبرتني بالظروف التي اضطرتها للزواج . وقاطعته "صوفيا" قائلة :

– لم .. لم أقل كل شيء بعد يا "ديفيد" .. لم أقل لك من يكون ذلك الرجل الذي تزوجته .

وهنا أجاب "كارل" ببرود :

– إنه أنا .

وبدا الجو متوترا للغاية عند سماع هذا الاعتراف ، واستدار "كارل" نحو "صوفيا" قائلا بنفس الهدوء :

– "صوفيا"، هل يمكنك أن تتركينا وحدنا قليلاً .. لديّ بعض الأمور التي أريد أن أوضحها لـ "ديفيد" ووجودك سيصعب المهمة ..

* * *

وانسحبت "صوفيا" سعيدة بهذا الاقتراح، وفي الطريق سمعت "صوفيا" حديثهما معا وكان صوت "ديفيد" يبدو عصبيا وحاداً بينما ظل "كارل" محتفظا بهدوئه ولم ترغب "صوفيا" سماع هذا الحديث واتجهت نحو باب أمامها ففتحته حيث وجدت المطبخ وبه "سارة" وفوجئت الفتاة بدخول "صوفيا" عليها :

– ما الذي حدث ؟ هل حدث شيء لـ "ديفيد" ؟

كان قلق الفتاة واضحاً جداً مما شد انتباه "صوفيا" ولم يكن الأمر صعباً حتى تخمن "صوفيا"، وطمأنتها قائلة :

– لا .. لا شيء .. "ديفيد" بخير .

واطمأنت "سارة" على "ديفيد" وبدأت تستكمل عملها بالمطبخ، وهي تقول :

– هل ستبقين هنا لعدة أيام مع زوجك ؟

– زوجي ؟

– نعم الشخص الضخم الذي حضر لتوه .. أليس هو زوجك ؟

واكتفت "صوفيا" بهذه الإجابة حتى لاتحاول شرح الأمر لها .

– نعم .
كان من الواضح جداً أن "سارة" تكن محبة عظيمة لـ"ديفيد" وفي هذه الحالة يجب عدم إخبارها بأمر إلغاء زواجها بـ"كارل" من أجل الزواج بـ"ديفيد" .
ثم ساد صمت طويل قطعته "صوفيا" قائلة :
– "سارة" أريد غسل شعري .. هل هناك كمية من الماء كافية ؟
– هناك نصف دلو ممتلئ بالمياه .. هل هذا يكفيك ؟
– للأسف لا، فما الذي يمكنني عمله الآن ؟
– يمكن شراء ما تريدينه من جارنا مقابل مبلغ ضئيل من المال، هل أستدعيه من أجلك ؟
– نعم، أرجوك .
وبعد خمس دقائق، أحضر الصبي دلواً به ماء وكانت "صوفيا" معها (شامبو) لغسل الشعر وعلى الرغم من أن الماء كان باردا إلا أنها لم تلجأ لتسخينه، لأن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً ولم تكن "صوفيا" ترغب في الانتظار أكثر من ذلك وعندما وضعت الماء على شعرها تحوّل الماء بسرعة إلى اللون الأسود، وهذا يعني أنها ستستعيد لونه الطبيعي ! ودهشت "سارة" كثيراً بينما كانت تتابع هذه العملية باهتمام شديد، ثم قالت للصبي :
– هيا اذهب لإحضار كمية أخرى من الماء يا "يوسف"، بسرعة !
وقد كانت "صوفيا" بحاجة فعلاً إلى كمية من الماء حتى يختفي أي أثر لهذا اللون الأسود، وأخيراً استعادت لون شعرها الرائع البراق حتى أن "سارة" قالت لها :
– ياله من لون رائع ؟ لماذا حاولت تغيير لونه ؟
– بسبب شيخ قبيلة وقع في غرامه ! إنها قصة طويلة !
– آه ، فهمت ، هنا الرجال يدفعون أموالهم كلها من أجل الزواج من امرأة لها لون شعرك .
– ولكن الشيخ كان من النوع الذي اعتاد أن يحصل على كل ما يريد دون مقابل، ولحسن الحظ نجح "كارل" زوجي في إنقاذي من براثنه .. ولهذا لجأنا

إلى تغيير لون شعري حتى لا يستطيع الشيخ العثور عليّ .
– إنه حظ سعيد أن يكون لك زوج قوي ، قادر على حمايتك من أمثال هؤلاء الرجال .. أنت محظوظة جداً يا "صوفيا" .
– نعم .. نعم .. إنني محظوظة جداً .
وكان صوت "صوفيا" مملوءاً بالمرارة في ذلك الوقت، ثم جففت شعرها بالمنشفة ومشطته ، وقد جف بسرعة شديدة بسبب حرارة المطبخ .. وهزت "صوفيا" شعرها سعيدة وفي هذه اللحظة دخل "كارل" عليهما، ودهش كثيراً عندما رآها ولكنه تمالك نفسه وقال :
– يجب أن نتحدث قليلا في بعض الأشياء المهمة .. هل يمكن أن نجلس معا منفردين لمدة قليلة ؟
فقالت "سارة" :
– هناك فناء صغير وراء المنزل ، يمكنكما البقاء هناك . وكان في الفناء شجرة كبيرة بجانب بعض الورود التي تم زرعها هنا وهناك وكان من الواضح أن ذلك الجمال من صنع "سارة" .
جلس "كارل" و"صوفيا" في مواجهة بعضهما تحت أشعة شمس الظهيرة، ولم تستطع "صوفيا" تحمل نظرات "كارل" كثيراً، ثم قالت لنفسها فجأة "إنني أحبه بكل قوتي، أحبه .. أحبك يا "كارل" !" وفوجئت "صوفيا" بهذا الاعتراف لنفسها .. فمنذ متى تحبه ؟ ربما يكون من البداية ؟ أو من اللحظة التي رأته فيها لأول مرة وظنته قاطع طريق ..
هل تقول له إنها تحبه .. ولكن لا يمكن ذلك ، فهي الآن بجانب "ديفيد" خطيبها والإخلاص بالنسبة لـ"صوفيا" شيء مقدس .. ولا يمكنها إذن عدم الوفاء بوعدها، قد تجرح "ديفيد" بهذه الطريقة .. وهمست لنفسها :
"ولكنك زوجة "كارل" ..." ياله من زواج تعيس، زواج تمثيلي .. كما أن "كارل" لايتمناها .. لايحبها .. إنه يرغبها .. نعم .. مجرد رغبة جسدية ومؤقتة .. لابد أن تكف عن هذا الحلم سريعاً .
وأخيراً قال لها "كارل" وهو ينظر لها ساخراً :

- "صوفيا" هل تحلمين ؟
ما يهمها الآن هو ألا يعرف الحقيقة .. ألا يعرفها أبدا !
وقالت له كاذبة :
- إنني أفكر في "ديفيد" .
- آه ! نعم بالتأكيد .. ولكن أمامنا حديثاً طويلاً يجب الخوض فيه معاً ..لقد نجحت أخيراً في إقناع "ديفيد" أن زواجنا لم يكن سوى وسيلة للخلاص من ورطة، وليس أكثر وأنوي الآن العودة إلى "إنجلترا" بدون إبطاء .. وهناك سأقوم بإلغاء الزواج وسيخبرك المحامون القائمون بذلك فور إلغائه .
- وخلال هذه المدة، ماذا سيحدث .. مثلا لو قام رجال الشرطة بتوجيه بعض الأسئلة المحرجة لي .. ؟!
- أنت تمتلكين الآن عقد زواج، وهذا كاف جدا بالنسبة لهم .
- يمكنني أن أجعلهم يرون عقد الزواج، وليس الزوج وقد يدهشهم ذلك !
- لا تعقدي الأمور يا "صوفيا"، يمكنك إخبارهم في هذه الحالة أنني ذهبت في رحلة عمل .
- وإذا لم يقتنعوا ؟
- ماذا تريدين مني إذن ؟ هل أنتظر معك ؟ الحقيقة أنا لا أنوي ذلك .
وصمت قليلا، ثم استطرد بصوت قوي :
- سأفعل ما بوسعي لمساعدتك، أعدك بذلك .. كما سأحاول استخراج نسخ من أوراقك الشخصية فور عودتي ..
وهذا كل ما يمكنني عمله لك يا "صوفيا" .
- نعم، هذا كل شيء .. أعرف ذلك جيداً .
وشعرت "صوفيا" أنها على وشك البكاء لكنها تماسكت حتى لاتنهار أمامه :
- ومتى سترحل ؟
- غداً في الصباح .. لقد أصر "ديفيد" على استضافتي هذه الليلة .وساد صمت رهيب وتردد "كارل" في الذهاب وفجأة رفع يده ببطء نحو شعر "صوفيا" الذهبي رغما عنه .
- لقد نسيت أن أقول لك كم هو رائع شعرك ..

ثم تركها ومشى بخطى سريعة وكانت الفتاة في شدة الاضطراب .
كانت هذه الليلة بمثابة عذاب لها .. وكانت فترة تناول العشاء تبدو طويلة للغاية كما أنها كانت تخشى أن يلحظ أحد الرجلين توترها الشديد .. وأخيرا اتجهت نحو حجرتها لتقضي الليل هناك وحيدة ووجدت "صوفيا" نفسها عاجزة تماماً عن تحمل فكرة رحيل "كارل" في الصباح .
سيرحل "كارل" ! ولن تراه ثانية، سيحمل معه جزءاً منها، كيف ستعيش دونه ؟ كيف ستعيش دون قلبها وروحها وكيانها كله .
وقال لها صوت العقل: "يجب نسيانه ! ستتزوجين من "ديفيد" ... وستعيشين معه بقية عمرك .. مع "ديفيد" .."
ولم تستطع "صوفيا" النوم في بداية الليل وجاهدت كثيرا حتى استسلمت للنوم ولكن لفترة قصيرة .. فقد استيقظت في الفجر، ظلت في فراشها بلا حراك ومرهقة كما لو أنها لم تنم طوال الليل، ثم سمعت ضوضاء خارج الحجرة .. أصوات وقع أقدام و ...
ونهضت الفتاة من فراشها واتجهت نحو النافذة ونظرت عبر زجاجها فوجدت "كارل" يقف أمام المنزل ويعد أمتعته فوق ظهر الجمل استعدادا للرحيل .
سيرحل ! "كارل" سيرحل دون أن يكلف نفسه عناء توديعها !
وارتدت "صوفيا" ملابسها على الفور ونزلت السلم بسرعة حتى دون أن تضع حذاء في قدميها وخرجت من الباب فوجدته وتجمدت على عتبة الباب ووقفت دون حراك وهي حافية القدمين .
ماذا تقول له ؟ فقد عجزت الكلمات عن التعبير عن حزنها وألمها .. الآن في هذه اللحظة الأخيرة بينهما ..
ومع ذلك كيف تدع "كارل" يرحل دون كلمة وداع، ولم تشعر بوجود "ديفيد" وراءها، فسمعته يقول لها فجأة :
- لقد استيقظت مبكراً يا "صوفيا" .
وكان ينظر لها في حنان عندما قال لها :
- كم أنت جميلة يا عزيزتي .
وعندما هم بتقبيلها ابتعدت عنه "صوفيا" خطوة إلى الوراء . وقابل "كارل" هذا

الموقف ببرود كعادته، وشعرت "صوفيا" بضرورة إثارته حتى النهاية فاقتربت من "ديفيد" وأحاطت كتفيه بذراعها ولكنها لم تقو على تقبيله. ولحسن الحظ لم يلاحظ "ديفيد" ترددها، وتقدم "ديفيد" نحو "كارل" ليساعده في إعداد أمتعته . ثم قفز "كارل" فوق الرحل .. والآن حان الوقت الحاسم، حان وقت الرحيل .

وكانت "صوفيا" تقف على مقربة منه، وكم كانت تتمنى في ذلك الوقت عمل أي شيء، أو قول أي كلمة .. لكنها كانت تشعر بالاختناق والعجز عن النطق، كانت تنظر إليه فقط، وتلاقت عيونهما للحظة .. ترى هل قرأ الحقيقة في عينيها ؟

وسار "كارل" في طريقه مسرعا أكثر من اللازم حتى إن "ديفيد" علق دهشا :

- لماذا يسرع بهذه الطريقة ؟ هذا يعرض الدابة للإرهاق بسرعة .

ولم تكن "صوفيا" تسمعه في ذلك الوقت، فقد كانت عيناها عالقتين بهذا الرجل الذي يبتعد عنها .

وتمنت "صوفيا" في داخلها : "لو يدير رأسه ... يدير رأسه مرة واحدة فقط .."

ولكن "كارل" ظل في طريقه ولم يستدر ناحيتهما أبداً .

وظلت عيناها عالقتين به حتى اختفى تماما وتلاشى في الصحراء الواسعة .

واستولى عليها في هذه اللحظة الحزن والألم بشدة لم تعهدها من قبل وكانت تتمنى لو تجري وراءه .. عندما أحست بيد "ديفيد" على كتفها، وقال لها :

- ها هو قد رحل ، وأصبحنا وحدنا الآن .

واستسلمت "صوفيا" للأمر الواقع .. لقد كانت مجرد فكرة مجنونة خطرت برأسها .. فلن تلحق أبداً بـ "كارل" .

وإذا حدث ذلك .. ماذا ستقول له ؟

وشعرت فجأة بيد "ديفيد" ثقيلة جداً على كتفيها لدرجة لا تحتملها .. ولكنها كانت مضطرة لاحتمالها .

- نعم .. إنه بعيد الآن يا "ديفيد" .

وعادا معا إلى المنزل .. وعندما نظرت "صوفيا" إلى نفسها في المرآة ، أحست أنها ترى أمامها إنسانة أخرى .. كم كان هذا الصباح كئيبا .. لقد فقدت الآن جزءاً مهماً من جسدها .. لقد مات قلبها .

الفصل التاسع

لم تعرف "صوفيا" من أين أتتها القوة التي ساعدتها على احتمال الأيام التالية لرحيل "كارل"، ولحسن الحظ لم يحاول "ديفيد" الاقتراب منها .. مجرد قبلة بريئة على خدها من حين إلى آخر، لقد كان متحفظا جداً في تعامله معها، وخصوصا أثناء وجود "سارة" في المنزل .

ومع الوقت، اكتشفت "صوفيا" شيئاً مهماً جداً .. فقد بدأت تشعر - على عكس ما كانت تتوقع - بالملل يسيطر عليها .. الملل القاتل ! لقد كان "ديفيد" يتغيب عن المنزل لفترات طويلة، كان يركز كل اهتمامه في عمله فقط، وعندما يعود إلى المنزل، لم يكن يتحدث سوى عن نجاحه ومشاريعه .. وكانت "صوفيا" تشعر بالإثم لعدم اكتراثها بما يقول .. وحاولت مساعدته في عمله ! فطلبت منه أن تدرس فصلاً أو اثنين على مسئوليتها لتخفف عنه بعض الشيء، ولكن "ديفيد" لم يقبل هذا الاقتراح وذلك لأنها لم تتمكن بعد من اللغة .. فشعوب الصحراء ينعمون بثقافة وطريقة حياة بدائية خاصة بهم .. وفكرة الاهتمام بتعليمهم تستلزم ثقافة وتربية خاصة .. وبالتأكيد لم تكن "صوفيا" على علم بأي شيء، ثم كيف لها مساعدته وهي لم تمارس التدريس قط .

وكان "ديفيد" - بالتأكيد - محقا في هذا الرأي، وكانت حججه منطقية، وعلى الرغم من أنها تعرف ذلك، إلا أنها بدأت تشعر نحوه بالحقد لعدم رغبته في إشراكها معه في اهتماماته .. وفي الأسبوعين الأخيرين، اتهمها "ديفيد" بعدم المسئولية والضعف مما يجعلها في حاجة دائمة إلى حماية .. وقد جعلها هذا الموقف تخرج عن وعيها !

وفي المنزل، لم يكن لـ "صوفيا" أي دور، فقد كانت "سارة" هي ربة الدار، وعندما تعرض "صوفيا" عليها أي مساعدة. يرفض "ديفيد" هذا الأمر ويتعلل بأن "سارة" تتكسب من عملها هذا، وأن مشاركة "صوفيا" لها تعني أنها لن تستطيع التكسب.

وتوالت الأيام بطيئة ومملة، وكانت "صوفيا" تصاب بالجنون .. ماذا تفعل هنا في هذا المكان حيث لاقيمة لها ولايحتاج أحد إليها ؟ وأين هذا الرجل الذي عرفته في "لندن"؟ لقد أصبح بالكاد يشعر بوجودها .. والحقيقة أنه لم يعد يهتم سوى بعمله في المدرسة .

وبعد عدة أيام بينما كانت "صوفيا" في المنزل، سمعت طرقاً شديداً على الباب، فذهبت لتفتح فوجدت رجل الشرطة في زيه الرسمي ، وقال لها بلغة إنجليزية سليمة :

– هل أنت "صوفيا كارلتون" ؟

– نعم، إنه أنا .

فنظر إليها رجل الشرطة بحدة وقال :

– إننا نبحث عنك منذ فترة طويلة .

وهكذا رأت "صوفيا" نفسها تسير بين رجال الشرطة متجهة نحو السجن، وكانت تشعر أنها ميتة، أكثر منها حية .. لقد انتهى الأمر هذه المرة .. وأفاقت من غفلتها عندما قال لها الرجل :

– لقد وجدنا أوراقاً يبدو أنها تخصك .. جواز سفر وتأشيرة خروج وبعض الوثائق الأخرى .. وأعتقد أن ضياع هذه الأوراق يؤرقك، أليس كذلك ؟

– أوراقي .. ؟ هل وجدتم أوراقي ؟ أين ؟

– لقد عثر عليها عند شاطىء "بدر" .. يبدو أنك عسكرت لعدة أسابيع في هذه الواحة .. لقد ابتسم لك الحظ، إن أحد رجال البدو قد وجد حافظة نقودك، فأتى بها إلينا وبالتأكيد يتمنى هذا الرجل مكافأة على ذلك .

– آه .. فهمت .. انتظرني لحظة من فضلك .

صعدت "صوفيا" مسرعة إلى حجرتها وأتت ببعض المال الذي أعطته لرجل الشرطة وقالت له :

– هل يمكنك توصيل هذا المبلغ إلى الرجل البدوي ياسيدي كنوع من العرفان بالجميل .

فوضع الرجل المبلغ بسرعة في جيب سترته، وهنا أحست "صوفيا" أن الرجل

لم يصل بعد إلى غايته، وقال لها بحدة :

– إن نسيانك التبليغ عن فقدان هذه الأوراق لا يمكن أن يمر هكذا بسلام .. أريد أن أذكرك بذلك .. لابد من العقوبة على التجول هكذا في البلاد بدون التراخيص اللازمة، هل تعرفين ذلك ؟

وشعرت "صوفيا" بالخوف ، فاستطرد الرجل قائلا في هدوء :

– وبما أنك حصلت الآن على أوراقك، لابد أن أعطيك إنذارا، ولتحاولي أن تكوني أكثر حذراً في المستقبل، وإلا ستكون العاقبة سيئة .. وإلى اللقاء ياسيدتي .

نظرت الفتاة إلى أوراقها وأخذت تفحصها حتى تتأكد من أنها وجدتها فعلا ولم تكن تحلم، أوراقها الشخصية !

هكذا تستطيع التحرك بحريتها، لقد أصبحت حرة، حرة ! لا .. لم تكن حرة .. فهناك "ديفيد" .. وأحست أنها مضطرة لإعطاء نفسها فرصة ثانية معه .

وانتظرته حتى عاد من المدرسة .

– أود أن أكلمك لدقيقة واحدة يا "ديفيد" .. اجلس من فضلك، يجب أن تفهمني.. أنا أشعر بحاجة ضرورية إلى ممارسة أي نشاط أياً كان، وبما أنك ترفض مساعدتي لك في المدرسة، يمكنك التخلص إذن من "سارة" لأحل أنا محلها في إدارة المنزل .

– التخلص من "سارة" ؟ أنت .. أنت لم تفكري في ذلك .

– ولكن لماذا ؟

– لأن ذلك غير معقول ! فأنت لم تعتادي يا "صوفيا" على هذا النوع من النشاط .. إن عائلتك كان لها دائما من يخدمها و ...

– إذن أنت لاتثق بي .. هل تظنني عاجزة ؟ ألا ترى أن الخمول يكاد يقتلني ؟ فأنا أقضي يومي كله هنا وحيدة لا أجد حتى من أتحدث إليه .. أنا لا أستطيع تحمل ذلك يا "ديفيد" .

– معذرة يا عزيزتي .. ولكن ما الذي يمكنني عمله لك ؟ كان من الأفضل أن

تنتظري في "إنجلترا" يا "صوفيا" .. وكنا بالتأكيد سنتزوج عند عودتي ..
– عودتك ؟ ومتى تنوي العودة ؟ لقد قلت منذ يومين إنك تنوي مد عقدك لسنتين أخريين !
– ولكنك متزوجة ولا يمكن الزواج الآن .
– إن إلغاء عقد الزواج قد يصلني بين يوم وآخر .. وسأكون عندئذ حرة .
– تحدثي بصوت منخفض، إن "سارة" يمكنها أن تسمعنا فهي لاتعرف شيئاً عن .. عن مشاكلنا الشخصية . كما أنها تعتقد أنك تقيمين هنا في انتظار عودة زوجك .
– كيف ؟ من قال لها هذا ؟
– أنا .. لقد ظننت أن ذلك .. سيكون أفضل .. للجميع وأن .. حقيقة أنا لا أعرف .
استراحت "صوفيا" في الكرسي، لقد بدت لها الحقيقة الآن واضحة، وهل كانت عمياء حتى تجهل ذلك، وسألته بحدة :
– أنت لا تنوي الزواج مني يا "ديفيد"، أليس كذلك ؟
– كيف تقولين ذلك ؟ فأنا أريد الزواج منك كما تعرفين .. أنا أحبك يا "صوفيا" .

* * *

واستولى غضب وحزن شديدان على "صوفيا" .. إن قصة حبهما لم تكن في الحقيقة سوى سراب .. و"ديفيد" أيضاترك لخياله العنان في مسألة الخطبة .. ولكن الحقيقة لا تتفق مع الحلم .
– لا يا "ديفيد"، أنت لا تحبني .. ولاداعي للثورة الآن، فأنت تحب "سارة" .
– "سارة" ؟ هذا جنون !
– نعم، فهي شابة وحلوة ومغرمة بك بجنون .. كما أنها غاية في الذكاء يا "ديفيد" وستكون زوجة ممتازة مثالية، أما أنت فلك علاقات ممتازة مع أهلها بالإضافة إلى أنك تحب عملك هنا .. وستكونان معا ثنائيا هائلاً .
وردد "ديفيد" في ارتباك :
– "سارة" ..

– لم تجرؤ قط على الاعتراف بحبك يا "ديفيد"، فكر في ذلك جيداً وتحدث معها، وأخبرني بقرارك، وسأذهب الآن حتى تتحدثا معا . إلى اللقاء .
خرجت "صوفيا" من المنزل وأخذت تتجول في الشوارع واشترت بعض الأواني المزخرفة على سبيل التذكار، وذلك لأنها كانت واثقة من قرار "ديفيد" .
لقد تركت "كارل" من أجل إخلاصها لوعدها الذي قطعته على نفسها مع الرجل الذي لا تعرفه في الحقيقة، والآن هاهو يتركها وتجد نفسها وحيدة، إن حياتها ستتغير الآن وسيتركها "ديفيد" ضحية الندم .
وقررت "صوفيا" فيما بينها : "لا يهم ذلك، يمكنها أن تبدأ من جديد، أن تبدأ من الصفر بكل شجاعة"، ولكنها ستغير من حياتها هذه المرة، ستلتحق بالجامعة وعندما تحصل على شهادتها ستبحث عن عمل .
وقلبها ؟ ماذا بشأن قلبها ؟ وارتعشت "صوفيا" عندما تذكرت الفراغ القاتل الذي ينتظر قلبها

* * *

عادت "صوفيا" إلى "إنجلترا" في يوم ممطر، ففرحت بهذه الأمطار بعد الحرارة الحارقة التي كانت تسود الصحراء .
وعندما وصلت المطار، استقلت "صوفيا" سيارة أجرة لتذهب إلى ابنة عمها "كات" ثم طرقت على الباب، وهناك فتحت لها "كات" وارتسمت على وجهها علامات الدهشة .
– "صوفيا" ! ماذا تفعلين هنا ؟
وألقت "كات" نظرة دهشة حول "صوفيا" ثم استطردت قائلة :
– أين "ديفيد" الجذاب ؟
– إنه لايزال في الصحراء حتى يتزوج من فتاة رائعة الجمال اسمها "سارة"، هل يمكنني الدخول ؟ فأنا متعبة جداً .
وحملت "كات" الحقائب ودخلت مع "صوفيا" في المنزل عندما قالت وهي تخلع حذاءها :
– هل هناك أخبار عن أسرتي ؟

فأجابتها "كات" من المطبخ :

– لقد اتصلوا بي أكثر من مرة .. وأخبرتهم أنك تقضين بعض الوقت مع الأصدقاء في الريف وأنك لا تجدين تليفوناً للاتصال بهم .. كما وعدتهم بأنك ستلحقين بهم في أقرب فرصة إذا أمكن، ولم تكن كذبة، فها أنت قد عدت . كما أنك كنت مع "ديفيد" وهو مجرد صديق .. ولكنني أشك في كونه صديقاً فقط !

– لم يكن خطأه ..

– حقا ! لو لم يكن طلبك للزواج، ماكنت ذهبت للبحث عنه وحدك في الصحراء !

لاح على وجه "صوفيا" ابتسامة .. إن الأمر يبدو بالنسبة لها كما لو كان منذ سنوات بعيدة .. وأغمضت عينيها من الإجهاد .

– أبي وأمي ؟ كيف حالهما ؟

– بخير .. ولكنهما قلقان بشأنك .. فأنت ابنتهما الوحيدة وكم انتظرا كثيراً قبل أن يرزقا بك .. أتخيل منظرهما لو يعلمان حقيقة الأمر ..

وأخذت "صوفيا" تضحك وتضحك حتى تحوّل ضحكها إلى بكاء .. فجرت "كات" لتأتي لها بمنديل .

– ابكي يا "صوفيا" هذا أفضل لك وستشعرين بالراحة بعد ذلك .

وقالت "صوفيا" من خلال دموعها :

– أشك في ذلك .. فقد أفسدت حياتي بيدي ..

– لا تهولي الموضوع ! فأنت فقط في البداية، هل تعرفين ما يجب عمله الآن؟ قليل من القهوة .. وبعد شرب القهوة سنتحدث معا .. وعلى ما أرى فإن "ديفيد" لم يكن يصلح لك .. ولك أن تتذكري أنك بالزواج منه كنت ستضطرين للبقاء دوما في الصحراء بعيداً عن المدنية .. شيء رهيب !

وكان هذا الأمر بالنسبة لـ "كات" التي تنعم بالمدنية شيئاً فظيعا لا يمكن احتماله.

– الحقيقة، لا أعتقد أنني كنت سأعتاد هذه الحياة .

ذهبت "كات" لإعداد القهوة واستغلت "صوفيا" هذا الوقت للاتصال بأسرتها، وعندما سمعت صوت والدتها على الطرف الآخر من الهاتف ، كادت تغرق في دموعها .

وقد طرحت عليها مدام "كارلتون" كعادتها أكثر من ألف سؤال .. عن إقامتها وأصدقائها الجدد .. وكان ذلك يتطلب من "صوفيا" تركيزاً خاصاً حتى لا تخطئ وتفضح سرها، وكان لابد أولا التحضير جيداً قبل إخبارهما برحلتها إلى الصحراء .. ولحسن الحظ لم تلاحظ مدام "كارلتون" أي شيء مريب خلال حديث "صوفيا" .. وأخيرا انتهت المكالمة .

وكانت "كات" قد أحضرت القهوة ..

– هيا اشربي القهوة بسرعة حتى نبدأ حديثنا .. أظن أنك سعيدة لهروبك من فكرة الزواج .

– ولكنني متزوجة ..

– ماذا !

– لقد سمعت جيداً .. إنني متزوجة .

وساد صمت رهيب عقب هذا الاعتراف، ثم قالت "كات" :

– آه .. متزوجة من "ديفيد" ؟

وهزت "صوفيا" رأسها لتجيب بالنفي .

– ولكن ممن إذن ؟

– أنت لا تعرفينه يا "كات" واسمه لا يعني لك أي شيء .

– أخبريني به .. من يعرف ؟ .. فأنا أعرف عدداً كبيراً من الناس وقد أكون قابلته في يوم ما .

– "كارل كينجسلي" .. هذا اسم زوجي .

قطبت "كات" حاجبيها وبدت كأنها تفكر بعمق ، ثم رددت ساهمة :

– "كارل كينجسلي" .. لقد سمعت بهذا الاسم، انتظري دقيقة .

تناولت "كات" جريدة مالية كانت ملقاة على المنضدة بينما كانت "صوفيا" غاية في الدهشة ..فلم تكن ابنة عمها تقرأ هذا النوع من الجرائد !

– سأشرح لك كل شيء .. فأنا أعرف أنك دهشة .. فقد وقعت في غرام أحد رجال الأعمال أثناء غيابك لذلك أحاول دائما الاطلاع على هذا النوع من الجرائد حتى لا أبدو غبية عندما يحدثني عن عمله، هل ترين إلى أي مدى أنا

مغرمة به !
وأخذت "كات" تتصفح الجريدة عندما صاحت :
– ها هو .. كما قلت لك !
وانتزعت "صوفيا" الجريدة منها بنفاد صبر، أخيراً انقشع بعض الغموض عن حياة "كارل" .. فقد كانت لا تعرف حتى مهنته ! لم يخبرها بأي شيء عنه .. عن حياته الخاصة أو المهنية .. وقرأت "صوفيا" العنوان بلهفة :
"شركة كينجسلي الكهربائية على حافة الإفلاس" وقرأت بقية الموضوع، لتعرف أن الملياردير "كارل كينجسلي" رائد الصناعة الكهربائية الذي تمكن من الوصول بشركته إلى القمة اختفى في ظروف غامضة عقب وقوع مأساة ...
وضعت "صوفيا" الجريدة، بينما كانت الدهشة تعقد لسانها .. أخيراً عرفت من هو "كارل" ؟ عرفت سر "مغامر الصحراء" .. إنه رائد الصناعة الكهربية .. لم يكن صعبا عليها أن تتأكد من ذلك، فهو يتمتع بشخصية قيادية .. لذلك لابد أن يكون على رأس إمبراطورية .. والآن يبقى أن تعرف سر هروبه إلى الصحراء .
وسألتها "كات" بفضول :
– ماذا عرفت عنه ؟
– الكثير .. إن "كارل" يعاني مشاكل عديدة الآن، ووفقا للجريدة فهو على حافة الإفلاس .. وسأحاول فوراً اللحاق به .
تمكنت "صوفيا" من معرفة رقم تليفونه، وتحدثت بسرعة إلى سكرتيره الخاص الذي أخبرها أنه غير موجود في هذه اللحظة .. ويجب أن تنتظر طويلا حتى تستطيع مقابلة "كارل" .
وقالت لها "كات" :
– أعترف حقا أنني لا أفهم شيئا .. ألا تعرفين رقم تليفون زوجك الخاص ! ياله من زواج غريب .
– حقا زواج غريب ! لم يدم سوى أربعة أيام .. وعندما وجدت "صوفيا" ابنة عمها في حيرة شديدة حاولت طمأنتها :
– لا تنزعجي .. ستعرفين كل شيء قريبا .. والآن يجب أن أذهب إلى "كارل" ..

هل يمكنني الاستحمام ؟ من فضلك جهزي لي ملابس ..
– تصرفي كما لو كنت في منزلك .. هل أنت واثقة من أن كل شيء على ما يرام؟ – سأخبرك بكل شيء فور لقائي بـ "كارل" .. هل يمكنك أن تأتي لي بسيارة أجرة؟
وبعد حوالي ساعة، كانت "صوفيا" تستقل سيارة أجرة لتصل إلى أكثر مناطق "إنجلترا" فخامة فقال لها السائق :
– لقد وصلنا يا سيدتي .
وهنا أعطته "صوفيا" حسابه ونزلت من السيارة ثم وقفت أمام منزل "كارل" في جمود غريب لعدة دقائق، وأخيراً توقفت أمام باب المنزل مترددة، ثم طرقت الباب .. وعندئذ فتح لها "كارل" بنفسه ولم تكن "صوفيا" تتوقع هذه المفاجأة .. فالرجل الذي يقف أمامها الآن يختلف كل الاختلاف عن مغامر الصحراء . لقد قص "كارل" شعره الآن، كما أنه يرتدي سترة ذات لون داكن .. فقط نظرة عينيه الزرقاوين لم تتغير .. ولاتزال حادة كنظرة عيني النسر ... وتحدث إليها بصوت بارد دائما، فقال :
– لقد اخترت وقتا سيئا للحضور يا "صوفيا"، ماذا حدث ؟ لماذا لم تنتظري إلغاء الزواج ؟ هل أنت بحاجة شديدة إلى الزواج من "ديفيد" سريعا ؟
إن المحامين الخاصين بي مشغولون بأشياء أخرى أكثر أهمية الآن .
ولكن "صوفيا" لم تكن تسمع شيئاً .
– هل يمكنني الدخول يا "كارل" ؟
– حسناً، ولكن لماذا ؟ ليس لديّ الوقت الكافي لقضائه معك كما قلت لك .
وتبعته "صوفيا" إلى الداخل حتى وصلت إلى حجرة استقبال الضيوف الواسعة والمزودة بشرفة كبيرة حيث تزدهر أجمل النباتات وأندرها .. إنها حقا واحة استوائية في قلب "إنجلترا" !
أما الحجرة فكانت تتصف بالهدوء والتناسق حيث الأرائك المريحة والسجاجيد الشرقية ذات اللون الأزرق ..
– هل ترغبين في شرب أي شيء ؟

واستدار "كارل" نحوها ليتلقى الإجابة عندما لاحظت "صوفيا" إلى أي مدى ملامحه مشدودة، فقالت له بطريقة عشوائية :

– يبدو أنك متعب يا "كارل" !

– حقا .. ولكنني لا أظن أنك جئت إلى هنا للاستفسار عن صحتي ؟ وأكرر لك للمرة الثانية .. إن إلغاء الزواج سيتم، ولكن في وقت متأخر بعض الشيء عن المتوقع ... أعتذر عن ذلك .

– لم أحضر إلى هنا لهذا السبب .. لقد قرأت في الجريدة أخبار شركتك ..

– ولذلك أتيت للسخرية مني ...

ولكنه شعر أنه جرحها بحديثه، فقال :

– معذرة .. إن الإرهاق يجعلني ظالماً يا "صوفيا"، لا أظن أنك تفعلين هذا أبداً.

ونظرت إليه الفتاة في عجز .. فقد كانت تنوي قول الكثير له .. ولكن من أين تبدأ ؟ .. فإن "كارل" متعب إلى حد يجعله غير قادر على الإنصات إليها فنهضت وذهبت لتجلس على ركبتيها بجانبه .

– منذ متى لم تنم جيداً ؟

– لاتذكريني ..

– إذن استرخ يا "كارل"، فأنت مرهق جداً .

– إنني عاجز عن النوم .. أحاول ولكن النوم يهرب مني ..

– يمكنني أن أساعدك على النوم يا "كارل" .

– بواسطة المنومات ؟ كلا، أنا لا أحب ذلك .

– أنا لا أفكر في ذلك .. والآن انزع سترتك ورباط عنقك .

– ولكن ....

– استرخ الآن ..

– أحذرك من ذلك، فقد لا يفيد .

ونام "كارل" على الأريكة ونامت "صوفيا" بجانبه، فقد كانت الأريكة تتسع لشخصين .

وسألها "كارل" في ريبة :

– ماذا تنوين يا "صوفيا" ؟ أنا أحذرك ..

– لقد نمنا جنبا إلى جنب في الصحراء .. ألا تذكر ذلك ؟

– يكفيني هذا ! فأنا لا أحتمل تصرفاتك الصغيرة هذه .

– حاول أن تثق بي .. أنا أعرف بالضبط ماذا أفعل .

وابتسمت "صوفيا" له ابتسامة رائعة مما جعله يذوب شوقا إليها .. وبدأت تفك أزرار قميصه بينما كانت أصابعها تلمس جسده برقة شديدة، فقال لها بصوت أجش:

– كلا يا "صوفيا" .. أنا أمنعك من ذلك !

وكانت "صوفيا" لاتزال تكمل عملها رغبة في إثارته وكم كانت تتمنى أن يكف عن مقاومتها .. وفعلا توصلت إلى ذلك !

وقالت له بصوت هادىء :

– لا أظن أنني أترك لك الخيار .

والحقيقة أن "صوفيا" كانت واثقة تماماً من نفسها، ومع ذلك كانت ترتعش بشدة، ثم اقتربت منه كثيراً عندما قال ثانية :

– كلا يا "صوفيا" .

وهكذا لم يتمالك "كارل" نفسه، فاحتضنها بقوة وقال لها :

– أنت جميلة .. جميلة جداً .. لقد وعدت نفسي ألا ألمسك أبداً ولكن الإغراء كان كبيراً .. هل هذا حلم ؟ ...

وانحنت "صوفيا" فوقه وأخذت تقبله في رقة حتى فقد "كارل" سيطرته على نفسه تماما وأخذها بين ذراعيه .. أخيراً أصبحت بين ذراعي الرجل الذي تحبه.. وكان قلبها يدق بسرعة شديدة ..

فقال لها :

– أنت ملكي يا "صوفيا" .. ملكي .. هل تسمعينني ؟ وعندما لم تجبه، كرر ثانية بصوته الأجش :

– قولي هذا يا "صوفيا" أود أن أسمعها منك . ولم تتمالك "صوفيا" نفسها أمام نظرته فقالت :

– أنا ملكك يا "كارل" .

– لم تستطع أي امرأة أن تسلبني عقلي مثلما فعلت يا "صوفيا" .

وهكذا كانت هذه أول ليلة لزواج "صوفيا" و"كارل" .

* * *

وعندما استيقظت "صوفيا"، وجدت "كارل" يتأملها فقالت له :

– هل تغيرت ملامح وجهي خلال ليلة واحدة ؟

– كلا فمازلت رائعة يا "صوفيا" .

– السبب بسيط ومعروف يا "كارل" .

فنظر إليها ولمس خديها برفق، ثم قال لها :

– لن أتركك ترحلين أبداً يا "صوفيا" .. أنا أعرف أنك تحبين "ديفيد" ولكنني سأجعلك تنسينه .. وأقسم بذلك .

فأجابته بصوت خجول :

– أنا لا أحب "ديفيد" .. لقد كنت معجبة به فقط حتى تأكدت فعلا أنني لا أحبه.. والسبب في اندفاعي نحوه هو قلة خبرتي .. فلم أستطع التمييز بين الحنان والحب .. وكان من الضروري أن أقابلك حتى تنكشف الأمور .. فقد شعرت فقط أنني مرتبطة بوعد مع "ديفيد" .

ويبدو أن هذا الاعتراف أدى إلى ارتباك "كارل" كثيراً .

– هل قلت إنك تحبينني يا "صوفيا" ؟

– أنت تعرف، وسلوكي أيضا يؤكد لك كلامي .

– أريد أن أسمع منك هذه الكلمات يا "صوفيا" .

– أحبك يا "كارل"، أحبك من كل روحي .

– لن أمل من سماعك أبداً ياعزيزتي .

– والآن جاء دوري لأسمعها منك .

– أحبك يا "صوفيا" يا أجمل من رأيت .

وقبلها بقوة قبل أن يستطرد قائلا :

– يوم تركتك لدى "ديفيد" كان أسوأ يوم في حياتي . كنت أتمنى اختطافك

وإجبارك على حبي، لم أستطع تقبل هذه الحقيقة القاسية: أنا الذي أبدأ دائما بقطع علاقاتي ، أقع في حب حورية ذات شعر ذهبي رائع .. كم كنت أتمنى أن يكون هذا الزواج حقيقياً ولكنك كنت تصرين على اللحاق بـ "ديفيد"، كنت ترددين اسمه دائما .

– والآن لا أفكر إلا فيك ..

كان الوقت يمضي بهما دون أن يشعرا بذلك، وأخيراً ألقى "كارل" نظرة على ساعته ثم قال :

– كم أكره أن أتركك ولكن من الضروري أن أذهب إلى المكتب .. فإننا نمر بأزمة.. لذلك يحتاج المكتب إلى عمل كثير .

والآن حان موعد معرفة كل شيء .. وتمزيق الستار .. فقالت له "صوفيا" بصوت قوي :

– "كارل" .. هناك شيء يؤرقني .. هذا المقال الذي قرأته عن المأساة .. ماذا حدث بالضبط ؟

ولم يجبها "كارل" بسرعة، ولكنه ظل ساهما وينظر إلى الفراغ، وقال لها دون أن ينظر إليها :

– لقد حدث ذلك قبل رحيلي، ومن ذلك اليوم والجرائد تلاحقني بالأخبار .. لذلك قررت الرحيل .. الفرار .

– ولكن لماذا ؟

– لقد تعرفت على امرأة رائعة ابنة أحد أثرياء الصناعة، رائعة ولكنها مدللة وغريبة الأطوار، فقد كانت أسرتها تدللها كثيراً وتحاول إرضاء رغباتها بأي وسيلة، ولذلك قررت قطع علاقتي بها، فقد كانت فتاة سطحية جداً كما أنها كانت تتشكك في كل نواياي، وتحاول دائما تغيير مجرى الحديث عندما كنت أتحدث عن علاقتي بها .

وفي أحد الأيام، دُعينا إلى رحلة صيد، لم أكن أرغب في الذهاب ولكن "ساماننا" أصرت على ذلك لدرجة أنني وافقتها تحاشيا لغضبها .. وحدث أننا ركبنا طائرة والدها الخاصة بما أن طائرتي كانت غير معدة حينئذ ...

وسكت "كارل" لبرهة كما لو كان يتعذب بهذه الذكريات مما أزعج "صوفيا"، ثم استطرد قائلا :

– وأثناء الطيران وقعت الكارثة .. فقد كان محرك الطائرة به عطب .. كان إهمالاً بشعاً كلف مساعد قائد الطائرة و "سامانتا" حياتيهما .. لا أتذكر إلا الصراخ والهبوط الجهنمي في الفراغ .. وعندما أفقت من إغمائي في المستشفى، كانت قدمي في الجبس، ولم يتفاءل الأطباء بشأنها حتى أنهم تصوروا أنني لن أستطيع السير ثانية .. واحتاج مني الأمر إلى أشهر طويلة لأبدأ في استخدام ساقي ثانية ..

ولكن أسوأ ما في الموضوع هذا الإحساس بالذنب الذي سيطر عليّ .. فلم يخبروني بوفاة "سامانتا" حتى يتم شفائي .. وعندما عرفت تمنيت اللحاق بها، لم خصني القدر بالنجاة؟وكاد والدها يصاب بالجنون لحزنه عليها وظل يطاردني بتهديداته حتى تم إثبات عطل الطائرة قبل الإقلاع .. وبعد الانتهاء من هذه المحنة كنت فقدت كل قوتي .. وعندما أصبحت في حالة جيدة قررت الرحيل بعيداً .. بعيداً جداً .. ولكن الليل والكوابيس ظلت تطاردني .

– ذلك الكابوس الذي سمعتك تتألم منه هذه الليلة في الصحراء .

– نعم يا "صوفيا". ولحسن الحظ بعد أن قابلتك بدأت هذه الكوابيس تخف وبدأت أعقد مهادنة مع نفسي وتقبلت الأمر الواقع .

– بالتأكيد لن تمحى هذه الذكريات من رأسك، ولكن السنين كفيلة بتخفيفها .

– لو بقيت بجانبي، يمكنني التخلص من كل شيء يؤرقني ياعزيزتي ..

ثم غابا معا في قبلة طويلة قبل أن تسأله "صوفيا" :

– وماذا حدث أثناء فترة غيابك ؟

– لقد عهدت بأمور شركتي إلى المدير المالي ويبدو أنه عجز عن إدارتها وعرضها لمخاطر كثيرة في البورصة، وهكذا هبطت أسهم "شركة كينجسلي الكهربائية" مما أثار جنون المساهمين، والآن أحاول طمأنتهم أنني قادر على إصلاح هذه الأخطاء وأن كل شيء سيصبح على ما يرام .. ويمكننا إذن أن نتزوج !

فما رأيك يا "صوفيا" ؟

– ولكننا فعلاً متزوجان ! أنا لا أفهم .

– كان العقد الذي أعطانا إياه الأب "دونوجو" مزوراً .

وانطلقت صرخة مفاجأة من فم "صوفيا" .

– لم ينته الأمر إلى هذا الحد .. فالأب "دونوجو" دجال وكان لك الحق في اعتباره شخصا غريباً .

– ولكن ...

– لا ينقصنا سوى الذهاب إلى الكنيسة لنعقد زواجنا على يد قس حقيقي هذه المرة .. أتخيل ذلك اليوم في حفل فخم وسط مئات المدعوين وأنت ترتدين ثوبا رائع الجمال ..

– آه "كارل" .. أمر رائع !

وأشرق وجه "صوفيا" بالسعادة .. أخيرا سيتحوّل حلمها إلى حقيقة !

– وحتى هذا اليوم .. أمامنا مهمة رائعة لابد أن ننجزها .. واقترب منها وأخذ يتحسس وجهها، فقالت له "صوفيا" :

– "كارل" .. تذكر أننا لسنا متزوجين !

– هذه المرة فقط ياعزيزتي ...

وكيف لـ "صوفيا" أن تقول "لا" ؟ فهي تتحرق شوقا إليه، ولاح على وجهها ابتسامة سعيدة ، فوضعت ذراعيها حول رقبته واقتربت منه حتى تلامس جسداهما وبدأ رحلة السعادة معا، رائدها مغامر الصحراء .

تمت